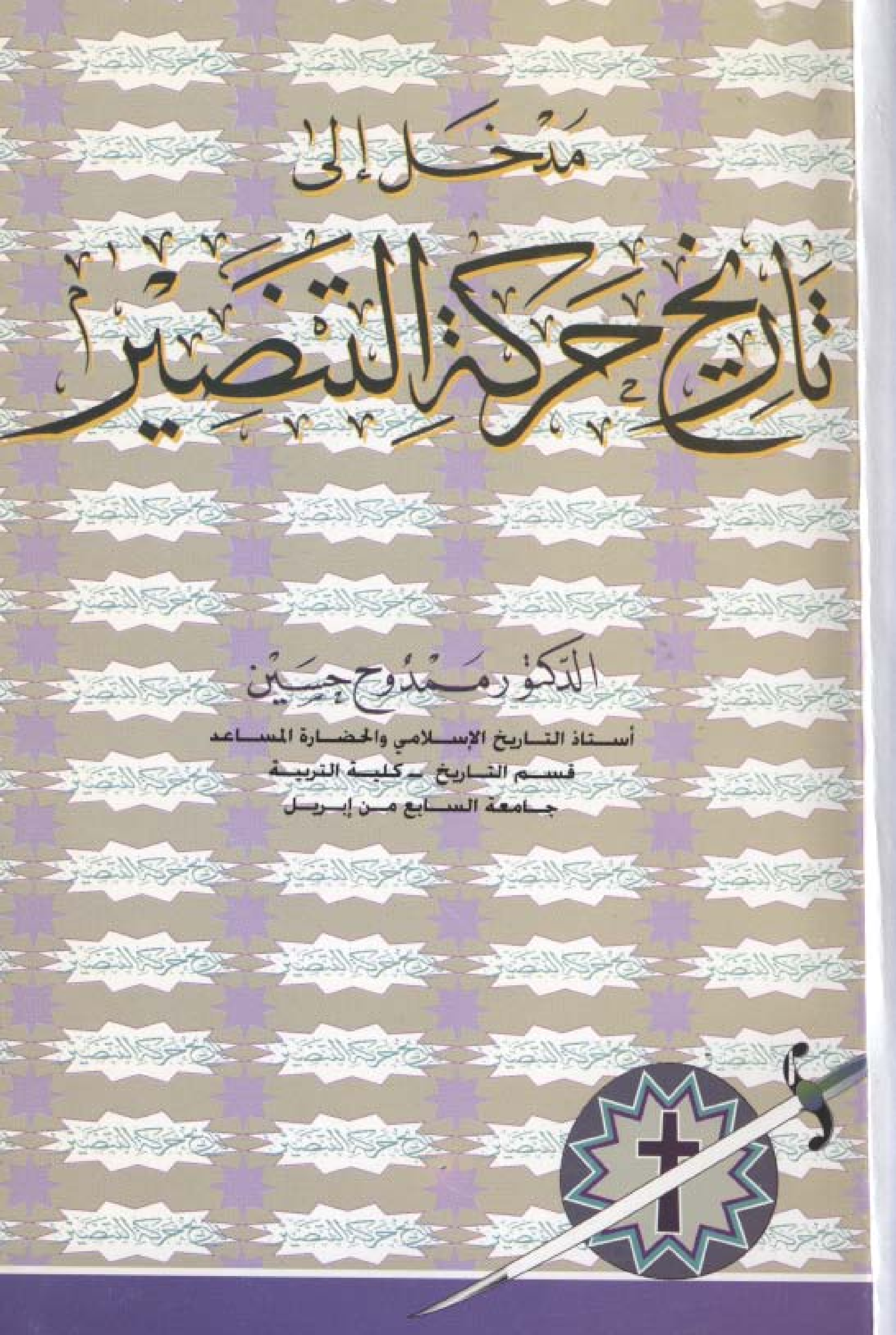


مدخل إلى تاريخ حركة التنصير

الدكتور ممدوح حسين
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد
قسم التاريخ - كلية التربية
جامعة السابع من إبريل

دار عمار



الدكتور ممدوح حسين

دار عمّار



الطَّبْعَة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٥/١٠/١١٤٨)

رقم التصنيف : ٩٥٦،٠٠٦٦٦

المؤلف ومن هو في حكمه : ممدوح حسين علي محمود

عنوان المصنف : مدخل إلى تاريخ التنصير

رؤوس الموضوعات : ١- الصليبيون ـ تاريخ

٢-

رقم الإيداع : (١٩٩٥/١٠/١١٤٨)

الملاحظات : عمان : دار عمار للنشر

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



الأردن - عمان - سوق البتراء - قرب الجامع الحسيني

ص.ب ٩٢١٦٩١ - هاتف ٦٥٢٤٣٧

ماهية حركة التنصير:

حركة التنصير، أو حركة التبشير كما يسميها البعض، هي إحدى إفرازات الحركة الصليبية، بل أحدُ وَجْهيها، فقد تأسست لتحقيق أهداف هذه الحركة، وفي ظلها وبجهودها نبتت، وبين ظهرانيها نمت وترعرعت، وتبعاً لذلك، مَرَّتْ بنفس أدوار القوة والضعف التي مرت بها، فكانت مثلها ومعها تخرج من طورٍ لتدخلَ في طورٍ جديد.

وإذا كان العديد من مؤرخي الحركة الصليبية قد عالجوا في كتاباتهم أحد أطوار هذه الحركة، هو الممتد بين أواخر القرن الحادي عشر وأواخر القرن الثالث عشر للميلاد، وهو الطور النشط الذي شَنَّتْ فيه أوروبا الغربية هجومها الكبير على العالم العربي والإسلامي، والذي تم التعارف على تسميته مؤخراً بالحروب الصليبية، مُغْفلين بذلك ما سبقه وما تلاه من أطوار، وناظرين إليه على أنه هو مرحلة الصراع الإسلامي الصليبي الوحيدة، فإن هذه النظرة قد بدأت تتغير منذ القرن الماضي في ضوء المعطيات التاريخية المتلاحقة، حتى كادت تتلاشى، ولم يعد يتشبث بها إلا القلة من المغرضين أو من الذين عرفوا بالسطحية وضيق الأفق، فإن هذه المعالجة قد تَركَّزتْ في معظمها على وجهٍ واحدٍ من وجهي هذا الصراع هو الجانب العسكري، في حين أنَّ الوجه الآخر على أهميته لم يحظ إلا بالقدر القليل من اهتمام الباحثين، حتى كادت الحقائق المتصلة به تختفي تقريباً تحت ستار كثيف من الغموضِ والتشكيكِ والتعتيمِ المتعمد في أحيان عديدة صرفاً للأذهانِ عن تلك الحقائق، الأمر الذي أرى معه أنه

لا بد من العمل على إزاحةِ هذا الستار، وتسليط قَدْرٍ من الضوء على هذه الحركة لتوضيح أهدافها وأبعادها.

مفاهيم ينبغي تصحيحها:

وانطلاقاً من هذا المبدأ، أرى أن هنالك بعض التعابير والمفاهيم الخاطئة المتعلقة بهذا الموضوع قد شاعت ينبغي توضيحها، ووضعها في إطار مسماها الصحيح، منها:

١- اسم هذه الحركة:

لا زال البعض، ومن ضمنهم بعض العرب والمسلمين - مع الأسف - يطلق على هذه الحركة اسمَ (حركة التبشير)، وهو في اعتقادي تعبير خاطىء، والأصَحُّ منه هو (حركة التنصير)، لأنَّ تعبيرَ التبشير، أُطلقَ على حركة نشر المسيحية قبل الإسلام، على اعتبار أن دعاة المسيحية كانوا يحملون للشعوب الوثنية بشارةَ الإنجيل، وقد انتهى دورُ هذه البشارة الدالة على الدعوةِ للديانةِ المسيحية بمبعث رسول الله ﷺ وظهور الإسلام، فأصبحت الرسالة المحمدية منذئذ هي البشرى للناس أجمعين. يؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ [المدثر]، وبهذا فإنَّ رسولَ الله ﷺ هو المبشر والمنذر للعالمين، وبالتالي فإن المسلمين الذين آمنوا بهذه الرسالة وخلفوا نبيهم في مهمةِ إبلاغها للناس في شتى أقطار الأرض هم الذين أصبحوا المبشرين، ولا يصح أنْ يُوصَفَ بذلك سِواهم.

٢- التمييز بين موقف المسيحيين الشرقيين والغربيين من هذه الحركة:

ينبغي عند التعرض لحركة التنصير بل وللحركة الصليبية بوجه عام،

التميز بين موقف المسيحيين الشرقيين وبخاصة العرب، والمسيحيين الغربيين، ذلك أن الهدف الرئيسي لهذه الحركة أصبح في أواخر العصور الوسطى، أي خلال عنفوان الصراع الإسلامي الصليبي، هو كَثْلكةُ العالم، أي فرض المذهب الكاثوليكي على جميع الناس بالإقناع أو بالقوة على حد سواء، وبعبارة أخرى، ليس فقط جذب غير المسيحيين للديانةِ المسيحية على إطلاقها، وإنما جذبهم لمذهبٍ معين هو المذهب الكاثوليكي فقط، وليس ذلك فحسب، وإنما كَثْلَكةُ غير الكاثوليك من المسيحيين، انطلاقاً من فكرة عالمية الكنيسة الكاثوليكية التي برزت وقتئذٍ، والمتمثلة في توحيد العالم بأسرِه في ظلِّ كنيسةٍ واحدة يرأسها البابا الذي يعتلي الكرسي الرسولي في روما.

وحيث أن الغالبية العظمى من المسيحيين الشرقيين، إنْ لم نَقُلْ بأجمعهم، كانوا لا يتبعون المذهب الكاثوليكي منذ الخلاف المذهبي المسيحي الأول، فإن أوروبا الغربية التي كانت تتبع هذا المذهب، والتي وجدت في نفسها القوة وقتئذ، عملت وبكل قواها على فرض مذهبها الكاثوليكي على هؤلاء المسيحيين، والذين كان من ضمنهم المسيحيون الذين كانوا يعيشون في أقطار العالمين العربي والإسلامي متمتعين بكامل حريتهم الدينية، فضلاً عن اطمئنانهم على أنفسهم وأموالهم نتيجة لتسامح العرب والمسلمين معهم[١]، على اعتبار أن هؤلاء المسيحيين الشرقيين من

---

(١) يؤكد هذه الحقيقة تلك الرسالة التي بعث بها ثيودسيوس بطريرك بيت المقدس في سنة ٨٦٩م إلى زميله اجناتيوس بطريرك القسطنطينية، والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أي تدخل في شئونهم الخاصة، وقد ذكر بطريرك بيت المقدس بالحرف الواحد في رسالته: (إن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلقى منهم أي أذى أو تعنت). =

عرب وسواهم في نظر الغرب الأوروبي، لا يزيدون عن كونهم هراطقة ضالين!!! ينبغي رَدُّهم إلى جادة الصواب، وإنقاذهم من ضلالهم[1]!!! إستنادا إلى قول القديس أوغسطين: (ادفعوهم إلى دين الله دفعا)[2]. ويظهر هذا الاتجاه بجلاء في العديد من مشاريع الدعاة الصليبيين التي وضعت منذ أواخر القرن الثالث عشر للميلاد، مثل مشروع (رامون لول)، ومشروع (مارينو سانودو)، ومشروع (فيليب دي ميزيير)[3] وغيرها التي جميعها تؤكد هذه الحقيقة المتمثلة في نظرتهم هذه للمسيحيين الشرقيين.

لذلك، فقد نال المسيحيون الشرقيون بعامة والعرب ومَنْ عاشوا في الوطن العربي منهم بخاصة نصيبهم هم الآخرون من الاضطهاد طوال هذا العصر، إلى حد أنَّ المتعصبين من المسيحيين الغربيين وما كان أكثرهم آنذاك، كانوا يستنكفون من مخالطتهم، بل وأحياناً حتى من مصافحتهم. وكانوا ينظرون إلى أبناء الأوروبيين من المسيحيات الشرقيات، نظرة هي مزيج من الاشمئزاز والاحتقار، وأطلقوا عليهم لقباً ينم عن هذه النظرة الدُّونية إليهم، هو لقب (بولاني Polains)، ومعناها الحرفي (الأمهار) جمع مهر، والاصطلاحي (المُهَجَّنُون) أو (الهجناء). وعلى ذلك، فإن

= (انظر عن ذلك د.سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص١٩).

(١) انظر عن ذلك أقوال Joachim المفكر الصليبي المعروف في:
(E.R.Daniel: The Franciscan Consept of Missions in the High Middle Ages, P.9).

(٢) انظر د.يحيى بو عزيز: الموجز في تاريخ الجزائر ص٣١١.

(٣) انظر عن هذه المشاريع:
A.S. Atiya: The Crusades in the Later Middle Ages. P.80.
وكذلك، لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، ج٣، ص٢١٣ وما بعدها.

المسيحيين العرب، والمسلمين في نظر المسيحيين الغربيين متماثلون، فوجَّه هؤلاء جهودهم لفرض المذهب الكاثوليكي على كلا الفريقين.

وقد أدرك مسيحيو الوطن العربي أهداف هذه الحركة، وما تدبره لهم، لذلك، وقفوا منها موقفاً سلبياً منذ البداية، إن لم نقل موقف المعارض، فلم يذكر لنا التاريخ - فيما أعلم - أسماء منظمات تنصيرية انبثقت عنهم، أو حتى أسماء مُنَصّرين منهم تعاونوا معها منذ بداية اتصال أوروبا الغربية بالعالم العربي والإسلامي في أواخر العصور الوسطى وحتى عصرنا الحاضر لتحقيق أهداف تنصيرية، إذ كانت هذه المنظمات أوروبية، وكان من انخرط فيها من المُنَصّرين هم جميعاً من الأوروبيين، حتى دخلت الولايات المتحدة الأمريكية ميدان التنافس الاستعماري منذ أواخر القرن الماضي فبدأنا منذئذٍ نسمع عن منظماتٍ تابعةٍ لها وعن منصرين أمريكيين.

ولا يحتج بالناحية الاقتصادية أو بالوعي الثقافي والسبق الحضاري على ذلك، أي أن الأوروبيين احتضنوا حركةَ التنصير لأنهم سبقوا الشرقيين بعامة والعرب بخاصة ثقافة وحضارة، وأنهم أقدر منهم على تحمل الأعباء المالية اللازمة لنجاح هذه الحركة. إذ أنه قولٌ مردود، لأن المسيحيين العرب كانوا هم السباقين وعياً وحضارةً وثقافة في ظلِ ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، ولو عناهم الأمر، لما توانوا عن إنشاءِ مثلِ تلكَ المنظمات، كما أنَّ غالبيتهم كانت تتمتع بالرخاء الاقتصادي في ظلِ الحكوماتِ العربية والإسلامية المتعاقبة، الأمر الذي يمكن أن يوفر لهم القدرة على تحمل مثل هذه الأعباء لو رغبوا في ذلك.

وبناء عليه، فإنه ينبغي استثناء مسيحيي الوطن العربي من نشاط حركة التنصير وما يَتَّصِلُ بها، إذْ لا علاقةَ لهم بها، فهي أوروبية قلباً وقالباً، وقصدت تحقيق أهداف الحركة الصليبية في بلاد العرب والمسلمين.

٣- تعبير الحروب الصليبية:

إن تعبير الحروب الصليبية الذي أطلق على الهجوم الذي شنته أوروبا الغربية على بلاد العرب والمسلمين في المشرق والمغرب على حد سواء، لم يعرف إلّا مؤخراً، وفي القرن التاسع عشر على وجهِ التحديد، والهدف من ذلك على ما يبدو هدف استعماري، هو إثارةُ العاطفة الدينية لدى المسيحيين بخاصة الشرقيين منهم لجذبهم للغرب الأوروبي، ومن ثم تجنيدهم لخدمةِ الاستعمار في البلاد العربيةِ والإسلاميةِ، سيما وأن الاستعمار الأوروبي كان وقتئذٍ في عنفوانه، فتفتق ذهنُ بعض مؤرخي أوروبا وكتابها عن هذا الاسم الرنَّان لذلك الهجوم، لعل ذلك يخلق قاعدة مشتركة بين الأوروبيين والمسيحيين الشرقيين وحساسية عدائية تُوجَّهان ضد العرب والمسلمين.

ومع أن الاستعمار فشل في إثارة أو تثوير المسيحيين في الوطن العربي إنْ صَحَّ التعبير، وبقيت غالبيتهم العظمى متمسكةً بولائها لأوطانها، وبإخائها للمسلمين وتعايشها معهم في وطن واحد تشاركهم آمالهم وأمانيهم وآلامهم، بصرف النظر عما كان عليه موقف البعض منهم خلال الطور النشط من تاريخ تلك الحروب التي دارت رحاها إبَّان ذلك الهجوم، إلّا أن هذا التعبير شاع فقيل عنه (الحروب الصليبية)، مع أن المؤرخين العرب والمسلمين الذين عاصروه، وحتى معاصريهم من المؤرخين الغربيين، أطلقوا عليه أسماء أخرى أبلغ وصفاً وأكثر دقة وتحديداً لماهيته ومغزاه، هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى، فإنه لا يمثل كامل حقيقة صراع العرب والمسلمين مع الحركة الصليبية.

فالمؤرخون العرب وعياً منهم بحقيقةِ هذه الحروب، ومعرفةً منهم بِمُشْعِليها ومُوجِّهيها والمشاركين فيها، وصفوها بأنها حرب إسلامية

فرنجية، وكانوا يدعون هؤلاء المعتدين بالفرنجة أو الفرنج أو الإفرنج[١]، ولم يصفوهم بالمسيحيين أو النصارى أو الصليبيين، وذلك تمييزاً لهم عن مواطنيهم من المسيحيين، وهذا هو الواقع، فمعظم المسيحيين الشرقيين وبخاصة العرب، لم يقحموا أنفسهم في هذه الحروب ضد المسلمين، بل إنَّ منهم من انخرط في صفوف المسلمين يحارب معهم ضد الغزاة الإفرنج[٢]، في حين أن الذين كانوا يشنون الهجومَ تلو الهجوم على بلاد العرب والمسلمين، ويُسَيِّرونَ الحملةَ العدوانية تلو الأخرى هم أهالي الغرب الأوروبي تحت شعار الصليب لإذكاء الحماس الديني والحمية في النفوس ضد العرب والمسلمين، مع أن الحقيقة والتي لم تعد تخفى على كل ذي بصيرة، أن القصد منها كان هو تحقيق أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية تحت ستار الهدف الديني المعلن.

وأما الأوروبيون، فقد أطلقوا عليها أسماء متعددة منها: (الحج إلى الديار المقدسة)، و(الحرب في خدمة المسيح)، و(أعمال المسيحيين وراء

---

(١) انظر عن ذلك مؤلفات المؤرخين العرب والمسلمين الذين عاصروا هذا الطور النشط من تاريخ الحركة الصليبية، مثل: «الكامل في التاريخ»، لابن الأثير. «الروضتين في أخبار الدولتين»، لأبي شامة. «السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزي. «مفرج الكروب»، لابن واصل، «كتاب كنز الدرر وجامع الغرر»، لابن أيبك الدواداري. «كتاب المحاسن اليوسفية»، لابن شداد. «كتاب الاعتبار»، لأسامة بن منقذ. «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر»، لابن خلدون، وغيرهم.

(٢) كان من بين الذين ذكرتهم كتب التاريخ من هؤلاء المسيحيين، عيسى العوام، الذي اشترك في الدفاع عن مدينة عكا حينما حاصرتها جيوش الحملة الصليبية الثالثة.

البحار)[1]، و(الحرب من أجل تحرير القبر المقدس)، إلى غير ذلك من أسماء تدور في فلك هذا المعنى، والمهم أنهم لم يطلقوا عليها اسم الحروب الصليبية (Crusades)، (Croisade).

كما أن إطلاق اسم (الحروب الصليبية) على الصراع العربي الأوروبي، يقصر هذا الصراع على الناحية العسكرية فقط، ويغفل الوجه الآخر له وهو الصراع العقائدي، أي أنه يغفل نشاط حركة التنصير، ورد الفعل العربي الإسلامي تجاهها. لذلك، فإن التعبير الأصح في اعتقادي، هو ما أطلقه أستاذنا، الأستاذ الدكتور سعيد عاشور على هذا الصراع بوجهيه العسكري والعقائدي حينما أسماه بنشاط الحركة الصليبية.

نشأة حركة التنصير:

تعود جذور نشأة حركة التنصير إلى الوقت الذي ظهرت فيه المسيحية كديانة جديدة اعتنقها البعض وأخذوا يعملون على نشرها في العالم الروماني الذي كان يدين بالوثنية - باستثناء اليهود بطبيعة الحال -، حيث أخذت هذه الديانة بالانتشار بعد صراع مرير مع الوثنية، ثم تراجع نشاطها منذ أواسط القرن الخامس للميلاد نتيجة لعوامل عديدة، أهمها الفوضى والاضطراب السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي أصاب غرب أوروبا وقتئذ وما تلاه من اجتياحِ الجرمان للقسم الغربي من الامبراطورية الرومانية، وما واكب ذلك وما أعقبه من خلافٍ مذهبي بين المسيحيين، مما جعل القائمين على هذه الحركة يوجِّهونَ جُلَّ نشاطهم لجمعِ شملِ المسيحية تحت زعامة البابوية.

---

(١) انظر مثلاً: وليم الصوري William of Type: A History of deads done beyond the sea.

وكان لظهور الإسلام وتمكن المسلمين من فتح عدة أقاليم هامة من الامبراطورية البيزنطية (القسم الشرقي من العالم الروماني)، ثم وصول حركة الفتوحات العربية الإسلامية إلى غرب أوروبا، كان له أثره المباشر على تجميد نشاط هذه الحركة أيضاً، ذلك أنها وجهت معظم اهتمامها في هذا الطور لمواجهة انتشار الإسلام بين المسيحيين في الأقاليم المفتوحة بتلفيق التهم الباطلة ضده، ونسج الأكاذيب والترهات عنه لتشويهه بقصد تزهيد الناس فيه من ناحية، ولاختلاق التعاليل المضللة والخاطئة بهذه الأكاذيب للانتصارات الباهرة والسريعة التي أحرزها والتي أدهشتهم، لتحفيزهم على الثبات على دينهم من ناحية ثانية. وقد دام هذا الطور ما يزيد عن الأربعة قرون، هي التي امتدت من بداية حركة الفتوحات، حتى أواسط القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد). ومع أن الأمر لم يَخْلُ من نشاطٍ لهذه الحركة في ميدان التنصير خلال هذه الفترة، فأحرزت مكاسب ذات قيمة كبيرة أهمها تمكّنها من تنصير شعبين كان لهما دور لا يُستهان به في تاريخ أوروبا من ناحية، وفي صراعها مع العرب والمسلمين من ناحية ثانية هما النورمان والمجريون، إلا أن جلّ اهتمامها كان موجهاً ضد الإسلام ومقاومته وإيجاد أنجح الوسائل للقضاء عليه.

ومنذ أن بدأت أوروبا الغربية تستجمع قواها وتتحفز لشنِّ هجومها الكبير على الوطن العربي شرقاً وغرباً في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، مما أدى إلى دخول الحركة الصليبية آنذاك في طورها النشط، فإن حركة التنصير تبعاً لذلك، بوصفها وليدة الحركة الأولى، دخلت هي الأخرى معها في هذا الطور الجديد. وإذا كان من المعروف تاريخياً أن مقر الحركة الصليبية هو غرب أوروبا، فإن من الطبيعي أن تكون هذه المنطقة أيضاً هي مركز حركة التنصير، وأن تنشط وقتئذٍ بجهودِ الأوروبيين وبين ظهرانيهم.

اتجاه حركة التنصير إلى بلاد المسلمين:

وكان من الطبيعي أن تواكب حركة التنصير هذا الهجوم الكبير الذي شنته الحركة الصليبية على الوطن العربي، أما عن كيفية بروز هذا النشاط الواضح لهذه الحركة وتوجيهه إلى بلاد العرب والمسلمين، فإن ذلك يقتضي منا الإشارة إلى ما كان يجري في ساحات القتال بين المسلمين والقوى الأوروبية في بلاد الشام شرقاً، وفي المغرب العربي الكبير والأندلس غرباً إبَّانَ الحملة التي عُرفت بالحملة الصليبية الثالثة، والتي واجهها صلاح الدين الأيوبي بوحدة مصر والشام في نفس الوقت الذي تمت فيه وحدةُ معظم المغرب الإسلامي إنْ لم نقل بأجمعهِ تحتَ لواء الدولة الموحّدية المجاهدة، ذلك أن هاتين الوحدتين وما جرى بينهما من تنسيق - وإنْ كان محدوداً - لمواجهة هذا العدوان، وما تلا ذلك من فشل تلك الحملة، كُلُّ ذلك كان نقطةَ تَحوُّلٍ في تاريخ الحركة الصليبية، فقد أصبح عليها منذئذٍ مواجهة جبهتين عربيتين متماسكتين إحداهما في المشرق بقيادة صلاح الدين وخلفائه من بعده، والثانية في المغرب بقيادة المنصور الموحدي واسطة عقد خلفاء الدولة الموحدية العِظام، فأدرك القائمون على تلك الحركة مدى الخطر الذي أخذ يهدد الوجود الأوروبي الصليبي في المشرق، وهو الجبهة الأبعد نسبياً عن مصدر ضخ المعونة في الوقت الذي كان في أمسِّ الحاجة إليها، والأكثر حساسية والأبلغ في استدرارِ العاطفةِ الدينيةِ.

وقد ازدادت حِدَّةُ هذا الخطر، حينما لم تفلح المحاولات العسكرية التالية التي بذلتها تلك الحركة لتدعيم ذلك الوجود، فقد تحولت الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية بدلاً من مصر كما كان قد تَقرَّرَ لها، وارتد (جان دي بريين) عن دمياط مهزوماً، ففشلت بذلك حملته التي عُرفت

بالحملة الصليبية الخامسة، ومثلها حملة الامبراطور فردريك الثاني التي عُرفت بالحملة السادسة، والذي لم يقدم إلى المشرق محارباً أصلاً، وإنما قدم على رأس ثمانمائة فارس فقط كمفاوض، إن لم نقل مستجدياً لمكسب سياسي يحفظُ عليه ماءَ وجهه، ويطفىءُ نارَ غضبِ البابوية عليه، التي كانت تشنُّ عليه حملة شعواء وتكيل له تهماً شتى، منها تقصيره في دعم الحركة الصليبية، وممالأته للعرب والمسلمين(١). كما ضاعت أيضاً جهود لويس التاسع ملك فرنسا بعد ذلك، إذ أخفقت حملتاه على مصر وتونس اللتان عرفتا بالحملتين الصليبيتين السابعة والثامنة، ولم تؤد جهوده السياسية التي بذلها طوال السنوات الأربع التي قضاها في بلاد الشام بعد إطلاقِ سراحِهِ من الأسرِ في أعقاب الحملة السابعة، والتي تمثلت في العمل على تشكيل جبهة مضادة تهدف إلى ضرب العرب والمسلمين في المشرق قوامها المغول والصليبيون وباقي القوى المعارضة الأخرى في تلك المنطقة، لم تؤدِ إلى نتيجةٍ تذكر(٢)، في حين بقيت الجبهة العربية الإسلامية في مصرَ والشامِ على تماسكها، بل وازدادت قوة.

فقد قامت دولة المماليك على أنقاضِ الدولة الأيوبية، والتي اقتضت مشيئةُ الله سبحانه وتعالى أن يتولى حكمها سلاطين يعتبر كل منهم الحاكم المثالي في الفترة التي حكم فيها، فكان لشجرةِ الدرِ وعزالدينِ أيبكْ أول حاكمين لهذهِ الدولةِ الفتية، والمهددة بأخطار مختلفة، كان لهما الفضل بما عُرِفَ عنهما من حنكةٍ ودهاء وحُسْنِ تقديرٍ للأمور، فأدارا اللعبة السياسية

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د.سعيد عاشور: «أوروبا في العصور الوسطى»، ج١، ص٣٨٣ وما بعدها.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر د.جوزيف نسيم يوسف: «العدوان الصليبي على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة»، ص١٣٩ وما بعدها.

مع الصليبيين وأمراء البيت الأيوبي في الشام والخلافة العباسية بمهارة، وتلاهما السلطانُ المظفَّر قُطز الذي اعتلى سدة السلطنة في مرحلة حرجة هي مرحلة المد المغولي، فتمكَّن بمواهبه العسكريةِ والسياسيةِ والإداريةِ وصلابتهِ وإيمانهِ القوي وشجاعتهِ من أنْ يُلحقَ هزيمةً ساحقةً بجيوشِ هولاكو في معركةِ عين جالوت. فأوقف بهذا النصر ذلك المَدَّ المُدمِّر، ثم تلاه الظاهر بيبرس. السلطان الميمون النقيبة، الذي نذر نفسه منذ توليه الحكم لمحاربةِ أعداءِ العربِ والمسلمين، فتارة يسدد ضربات مؤلمة للمغول يبعد بها خطرهم عن بلاد الشام، وتارة أخرى يقارع الصليبيين، فيلحق بهم الهزيمة تلو الأخرى، وينتزع منهم المعاقل والمدن، وثالثة يجتاح مملكة أرمينيا الصغرى أحد أهم مراكز التآمر على العرب والمسلمين في الشرق، ورابعة يشن غارةً قوية على مملكة النوبة في الجنوب تعيد إليها صوابها، بعد أن توفرت لديه الأدلة على وجود مشروع تعاونْ بينها وبين الحركة الصليبية يُوجَّه ضد دولته، وخامسة يرسل قوات من قبله لمؤازرة المستنصر الحَفْصي سلطان الدولة الحفصية في إفريقية في مواجهته للحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا.

وفي ظل هذا الوضع الذي لم يزد الصليبيين في المشرق إلا ضعفاً وتمزقاً ويأساً من استمرارية البقاء، برزت حركةُ التنصير إلى سطح الحوادث من جديد في صورة نظرية أو فكرة، نادى بها بعض المفكرين الصليبيين، هي ضرورة اتباع أسلوب آخر في صراع الحركة الصليبية مع العرب والمسلمين، ألا وهو أسلوب الصليبية السلمية، ليس ليحل محل الصليبية المسلحة، وإنما ليكون مسانداً لها، الأمر الذي يؤكد ما سبق ذكره من أن هذين الأسلوبين انبثقا عن حركة واحدة، ولتحقيق هدفٍ مشترك، فكانا بذلك أشبه بوجهين لعملة واحدة، كما يؤكده أيضاً ظهور هذا التوجه بوضوح في مشاريع ونظريات الدُّعاة الصليبيين الذين عاصروا تلك الفترة،

ومن جاء بعدهم من أمثالهم الذين زَخَرَ بهم أواخرُ القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر للميلاد بأسره[1].

---

(١) ظهرت فكرة الصليبية السلمية لأول مرة أثناء الدعوة للحملة الصليبية المعروفة بحملة الأطفال التي توجهت إلى المشرق في سنة ١٢١٢م حينما أعلن قائدها الصبي نقولا بأنه ومرافقيه في الحملة وجلّهم من الصبيان لن يلجأوا إلى غزو الأراضي المقدسة بالقوة، وإنما سينجحون في تحويلِ العرب والمسلمين جميعاً إلى المسيحية عن طريق التنصير.
(انظر د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٥٥ وما بعدها)، ثم دعا لها المفكر الصليبي Joachim في كتابه المسمى: Superr Hieremiom الذي ألفه في سنة ١٢٤٨م.
(انظر عن ذلك E.R.Daniel: Op.Cit., P.42).
ثم تلاه القديس توما الإكويني في كتابه المسمى Summa Contra Gentiles، أي (خلاصة ضد الأعاجم)، الذي كتبه ما بين سنتي ١٢٦١ و١٢٦٤، ثم نادى بها رامون البنيافورتي الذي تبنى آراء القديس توما الإكويني في هذا المجال، وتبعه في المناداة بهذه الفكرة روجر بيكون، أشهر مفكري أوروبا في العصور الوسطى، إذ يقول في كتابه المسمى: Compendiom Studdi Philosophia الذي كتبه في سنة ١٢٧١م أي بعد فشل الحملة الصليبية الثامنة بقليل: (إن المسيحيين قلة، وغير المسيحيين أكثر، وكسب غير المسيحيين ينبغي أن يكون بالوعظ - أي بالتنصير - وليس بالحرب الصليبية، وسيهتدي الكثيرون منهم إذا ما اتبع المبشرون!! خطته)، وعرض خطته هذه تفصيلياً في ذلك الكتاب. (انظر E. R. Daniel: Ibid, P.61-62)، ولكن أشهر من نادى بهذه الفكرة أو النظرية هو رامون لول، الذي يعتبر أشهر المفكرين الصليبيين في أوروبا في العصور الوسطى، وسماها بنظرية السيفين، أي سيف القوة العسكرية، وسيف التنصير.
(عن رامون لول وآرائه في التنصير انظر:
A.S, Atiya: Op.Cit, P.74, E.R.Daniel: Ibid, P.66, J.N.Hillgarth: Ramon Lull and Lollism in Foorteenth Century, France, P.6).

ويعتبر القديسان (فرانسيس) و(دومينيك) من أوائل مَنْ تحمسوا لهذه الفكرة ووضعوها موضع التنفيذ، فأسس كل منهما منظمة رهبان نُسبتْ إليه لهذا الغرض، هما منظمتا الفرانسيسكان، والدومنيكان، وحرص كُلٌّ منهما على وضع منهاجٍ واضح لرهبان منظمته وخططٍ تفصيلية للعمل، وقسم كل منهما العالم غير الكاثوليكي وقتئذ إلى أقاليم، وخصص لكلٍّ إقليمٍ منها العدد الكافي منهم لمباشرةِ الجهود التنصيرية في ربوعه، وقد سلكت كُلٌّ من هاتين المنظمتين طريقاً مستقلاً تختلفان في بعض نواحيه وتتفقان في نواحٍ أخرى، الأمر الذي لا مجال للخوض فيه، ولكنهما كلتيهما جمعتهما وحدةُ الهدف، وتماثلتا في الحماس للتنصير وتَحَمُّلِ الصِّعاب والمشقات في هذا السبيل، وقدوتهما في ذلك القديسان الآنفا الذكر، اللذان لم يكتفيا بما تَقَدَّمَ ذِكْرُه، وإنما قام كل منهما بتدشين جهود منظمته في ميدان التنصير بنفسه.

فأما القديس فرانسيس، فقد باشر جهوده بمرافقته للحملة المعروفة بالحملة الصليبية الخامسة التي توجهت إلى مصر، ومنذ أن وطئت قدمه أرض الكنانة، شرع في الاتصال بمن استطاع الوصول إليه من مسلمي مصر ومسيحييها على حَدٍّ سواء يدعوهم إلى المسيحية على المذهب الكاثوليكي، ولم يثنه فشله في تنصير أيٍّ من أولئك الذين قابلهم، أو فشل تلك الحملة، لم يثنه عن مواصلة جهوده، فسعى لمقابلة السلطان الكامل الأيوبي بإصرارٍ عجيب، آملاً في إقناعه في التنصير، ظناً منه أن تسامحه مع المسيحيين ما هو إلا ميلٌ منه للمسيحية، وفعلاً نجح في مقابلة ذلك السلطان، إلا أنه فشل في تنصيره بطبيعة الحال، فعاد إلى إيطاليا بعد انسحاب تلك الحملة، ولكن فشله هذا لم يَفُتَّ في عضده، إذ لم يلبث أنْ أخذ يُعدُّ العدة لرحلة جديدة، لممارسة نشاطه في ميدان قريب بالنسبة لإيطاليا هذه المرة هو المغرب العربي، حيث غادر إيطاليا إلى إسبانيا في

سنة ١٢١٣م لمقابلة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ليساعده على السفر إلى بلدان المغرب العربي، هو وبعض أتباعه الذين كان من بينهم (Bernard of Quintavalle)، وكان فرانسيس يأمل في مقابلة عاهل الدولة الموحدية لإقناعه بالتنصير والسماح له ولأتباعه بممارسة جهودهم التنصيرية في أنحاء دولته، ولكن مرضه اضطره لتغيير خططه والعودة إلى إيطاليا[١]، حيث لم يلبث أن توفي، إلا أن تلاميذه ورهبان منظمته واصلوا العملَ على تحقيق طموحاته التنصيرية من بعده وفاءً لذكراه.

وأما القديس دومينيك، فقد وجد له ميداناً آخر للعمل هو جنوب فرنسا الذي ظهرت فيه في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد حركة دينية تحررية انشقت عن الكاثوليكية، ولم تلبث أنْ تحوَّلت إلى ثورة اجتماعية سياسية دينية خطيرة عرفت في التاريخ بثورة (الألبجنسيين)، والتي سيطرت على جنوب فرنسا بأسره، وباتت تهدد بالانتشار إلى الأماكن المجاورة، مما جعل البابوية توجه حملةً صليبية كبيرة لهذه المنطقة للقضاء على الثورة المذكورة[٢]. وفي هذا الميدان برز القديس دومينيك يدافع عن الكاثوليكية باعتبارها في اعتقاده أنها هي المسيحية الحقة، وما عداها حركات هرطقية ينبغي محاربتها، وقد بذل جهوداً مضنية مع الألبجنسيين لإعادتهم إلى الكاثوليكية في نفس الوقت الذي كانت فيه سيوف جنود هذه الحملة تعملُ في أجسادِ هؤلاء دون رحمةٍ حتى تَمَّ إخمادُ ثورتهم.

ويستفاد من ذلك أمران كلاهما يؤكِّدُ ما سبق أنْ ذهبنا إليه من أن العلاقةَ وطيدةٌ بين الصليبية والكثلكة، وأنَّ الأولى كانت في خدمة الثانية.

---

(١) انظر E.R.Daniel: Op.Cit, P.42.

(٢) لمزيد من التفصيل عن هذه الثورة، انظر:
د. سعيد عاشور: «الحركة الصليبية»، ج١ ص٥٠٨.

وأول هذين الأمرين هو توجيه حملة صليبية ترفع شعارَ الصليبِ إلى قوم مسيحيين - على غرار ما كان يوجه إلى بلاد العرب والمسلمين من حملات - بسبب انشقاقهم عن الكاثوليكية مع بقائهم على مسيحيتهم، الأمر الذي اعتبرته الكنيسة جريمة نكراء إن لم نقل كفراً يستحقون عليه عقوبة صارمة، وثانيهما أنَّ الهدف الرئيسي لحركة التنصير هو الكثلكة وليس نشر الديانة المسيحية على إطلاقها، الأمر الذي يؤكد قولنا من أن المسيحيين الشرقيين ومن ضمنهم العرب كانوا مُستهدَفينَ من قبل هذه الحركة شأنهم في ذلك شأن مواطنيهم من المسلمين.

وعلى أية حال، فإنَّ القديس دومينيك بعد القضاء على هذه الثورة وجه جهوده إلى ميدانٍ آخر تمثَّلَ في مشاطرة الرهبان الفرانسيسكان نشاطاتهم في الميادين الأخرى، ولم يلبث أن ازداد أعدادُ الرهبان الذين انضموا إلى منظمته فضلاً عن أولئك الذين التحقوا بمنظمة الفرانسيسكان، وصاحَبَ ذلك ازدياد نفوذهما في أوروبا الغربية إلى حد كبير بسبب اعتلاء بعض رهبانهما كرسي البابوية، وللعلاقات القوية التي ربطت بعضاً آخر منهم بملوكها وأمرائها، إلى حد أنهما أخذتا توجهان الحياة الدينية، وإلى حد ما السياسية فيها، فضلاً عن علاقاتهما مع العالم غير الكاثوليكي، وأصبح رهبانهما عبارة عن جيش من المنصرين، كانوا لشدة حماسهم على استعداد للذهاب إلى أيِّ مكانٍ في العالم لممارسة نشاطهم التنصيري، وتبعاً لذلك، كان هؤلاء من أوائل المنصرين الذين انبثوا في الشرق يجوبون أنحاءه لهذا الغرض.

ومنذ اعتلاء البابا إنوسنت الرابع كرسي البابوية في أواسط القرن الثالث عشر للميلاد، نشطت حركة التنصير إلى حد كبير، ذلك أن هذا البابا أخذ على عاتقه توجيهها وحقنها بدماء جديدة باستمرار ليوفر لها القدرةَ على

النمو والتطور محاولاً في ذلك الاستفادة من هذا الجيش من المنصرين، ويقال إنه كتب خلال وجوده على كرسي البابوية ما يزيد عن الأربعة آلاف رسالة تتعلق بأمور التنصير، وكما أرسل العديد من البعثات التنصيرية شرقاً وغرباً[1].

محاولات تنصير المغول:

وكان من أكثر ما استحوذ على اهتمام هذا البابا بخاصة واهتمام حركة التنصير في عهده بصفة عامة، هو العمل على تنصير المغول. فقد بدأ التطلع للاستفادة من هذه القوة الجبارة منذ أن اجتاحت جحافل جنكيز خان مملكة خوارزم المسلمة وما جاورها أيضاً من بلاد المسلمين، سيما وأن بنيّة الذين تقاسموا امبراطوريته من بعدِهِ ساروا على نفس سياسته العدائية تجاه المسلمين، ولم تلبث جيوشهم أنْ أخذت تُهدد العراقَ ذاته مقر الخلافة العباسية وباقي أقطار شرق العالم الإسلامي التي لم تكن قد اجتاحتها بعد، فضلاً عن تهديد أوروبا ذاتها بعد أن وصلت بعض فرقها إلى هنغاريا.

لذلك، أخذت فكرة حركة التنصير تُوَجِّهُ قدراً كبيراً من جهودها للعمل على تنصير هؤلاء، وكانت تدرك أنها إذا نجحت في ذلك، فإنها تكون قد أحرزت عدة مكاسب، أهمها كسب هذه الأمة الوثنية التي تسيطر على شرق ووسط آسيا للمسيحية الكاثوليكية، حيث يمكنها توجيه هذه القوة العاتية بحكم الرابطة الدينية كيفما وحيثما تشاء، هذا من ناحية، ثم ومن ناحية

---

(١) عن جهوده التنصيرية انظر د.جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص٢٥٨ وما بعدها، وانظر كذلك:

E.Tisserant & G.Weit: Une Letter de l'Almohade Murtada au Pope Innocent IV, P.47.

ثانية تفادي خطرٍ كبير فيما لو انضمت هذه القوةُ إلى المسلمين لعلمها اليقيني بأنها لن تبقى على وثنيتها إلى الأبد بعد اتصالها بالديانات السماوية الثلاث، بل ستتحول على الأرجح إن آجلاً أو عاجلاً إما إلى الإسلام أو المسيحية، نظراً للتعقيد الكبير في الديانة اليهودية، الأمر الذي وضع هذه الحركة في سباقٍ مع المسلمين في هذا الميدان، وإنْ تَعذَّرَ التنصيرُ فلا أقلَّ من قيامِ حلفٍ أوروبي مغولي يوجَّه ضِدَ العربِ والمسلمين للإطباقِ عليهم من الشرقِ والغربِ وإفنائهم أو إجبارهم على التنصير، وأخيراً وليس آخراً إبعادُ خطرهم عن أَوروبا الغربية بعد أن بات يهددها[١].

وهكذا، وتحقيقاً لهذه الأهداف، أخذت البعثات التنصيرية تتوالى على بلاطات خانات المغول، وكان البابا إنوسنت الرابع الآنف الذكر هو الذي استهل إيفاد هذه البعثات التي كانت تأخذ صفة السفارات، إذ أرسل في سنة ١٢٤٥م بعثة مكونة من (لورنزو) البرتغالي، و(جيوفاني دي بلانو كاربيني) الفرانسيسكاني إلى (قوراقورم) مقر خاقانات المغول لمقابلة (كيوك خان) خاقان المغول الأعظم وقتئذٍ، ومع أن لورنزو البرتغالي لم يكمل رحلته بل توقف في بلاد فارس على ما يبدو، إلا أن كاربيني وصل إلى البلاط الامبراطوري المغولي، وحضر حفل تتويج (كيوك خان) الذي تم في ١٥ أغسطس من ذلك العام. ومكث في ذلك البلاط ضيفاً مكرماً مدةً تزيدُ عن العامِ، إذ عاد إلى أوروبا في نهاية عام ١٢٤٧ حاملاً معه رد الخاقان إلى البابا المذكور[٢] والذي مفاده رفض اعتناق المسيحية بطريقة لبقة مع إبقاء الباب مفتوحا لتعاونِ الطرفين ضِدَ العربِ والمسلمين.

---

(١) انظر د.جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص٢٥٥ وما بعدها.

(٢) انظر د.جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص٢٥٨ وما بعدها، د.سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج٢ ص١٠٩٩.

وتذكر المصادر التاريخية بعثة أخرى أرسلها هذا البابا في تلك الفترة إلى الخاقان هي البعثة التي ترأسها الراهب الدومنيكاني (أسلين اللومباردي) وضمت ثلاثة رهبان دومنيكان أيضاً في البداية، ثم انضم إليها راهبان آخران هما (جويشار دي كريمونا) و(أندريه دي لونججيموه) في الطريق، حيث توجهت إلى (تفليس) في القفقاس. وقابلت خان مغول تلك البلاد، ثم غادرتها إلى بلاد فارس، واجتمعت بخان مغولها أيضاً، ثم اتجهت إلى معسكر (باتوخان) قائد الخاقان الأعظم في آسيا الغربية، حيث قابلها نيابة عن الخاقان، وعادت بعد ذلك إلى أوروبا يصحبها سفيران من قبله هما (إيبيج)، و(سرجيس)[(١)]، وقد عقد البابا إنوسنت الرابع معهما عدة اجتماعات ليعرفَ مدى استعداد أمتهما للتنصرِ على المذهبِ الكاثوليكي والتعاون مع الغرب الأوروبي، حيث سمح لهما بعد ذلك بالعودة وزودهما بهدايا ورسائل إلى خانات المغول ينشد فيها صداقتهم وتعاونهم[(٢)].

وسار الملك الفرنسي لويس التاسع عشر على نهج سياسة البابا إنوسنت الرابع في التقرب إلى المغول، ومحاولة الوصول إلى تفاهم معهم ضد العرب والمسلمين، وقد واتته الفرصة لذلك حينما أرسل إليه (جعطاي خان) خان مغول بلاد فارس سفارة إثر شيوع الأنباء على القيام بحملته الصليبية إلى الشرق، فوافته تلك السفارة في قبرص في أواخر عام ١٢٤٨م

---

(١) يبدو من اسم هذا السفير أنه مسيحي، ولا غرابة في ذلك، لأن بعض الرهبان النساطرة كانوا قد وصلوا إلى بلاط خاقانات المغول قبل الأوروبيين بفترة طويلة كما سيذكر في موضعه.

(٢) عن هذا الموضوع انظر:
A.S. Atiya: Op.Cit, P239-241، وكذلك د. جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص٢٦٠ وما بعدها.

حيث استقبلها بحفاوة بالغة ورَحَّبَ بما عرضته عليه من تنسيق وتعاون، وأرسل معها عند عودتها في أوائل عام ١٢٤٩م بعثة مكونة من ثلاثة من الرهبان الدومينكان هم (أندريه لونججيموه) الآنف الذكر، و(وليم دي لونججيموه)، و(يوحنا دي الكركسوني)، وعين أولهم رئيساً لها لخبرته التي اكتسبها في شئون المغول في رحلته السابقة إلى الشرق، وزودها بهدية ثمينة للخاقان الأعظم كان من ضمنها خيمة من قماش قرمزي على هيئة كنيسة صغيرة نقشت بداخلها بعضُ الآياتِ والصور الدينية بقصدِ استمالتهِ للمسيحيةِ، وكؤوساً للقربان وكتباً وكل ما يلزم لإقامة القداس في حضرتهِ، فضلاً عن الهدايا الأخرى، والتي لم يغفل نصيب (جغطاي خان) منها.

وحينما وصلت تلك البعثة إلى بلاط (جغطاي خان) استقبلها بحفاوةٍ ثم أرسلها إلى قراقورم لمقابلةِ الخاقان حيث كانت (قلقميش) زوجة (كيوك خان) قد اعتلت العرش بعد موت زوجها إلى أن تولى العرش (منكوخان) الذي استقبل البعثة وقبل هدايا الملك الفرنسي[1]، ولكن بالرغم من احتفائه بها، فإنه تملصَ من التوصلِ إلى تفاهمٍ على أمور محددة معها، وليس ذلك فحسب، وإنما حاول استغلال قدومها إلى بلاطهِ لإخضاعِ بعضِ الأمراء الذين لم يكونوا قد أعلنوا خضوعهم له بعد، فدعاهم وعرض تلك الهدايا أمامهم مبيناً لهم أنها ضريبة قدمها له الملك الفرنسي خوفاً من بطشه[2]، وهكذا فشلت هذه البعثة في تحقيق أهدافها وعادت بعد ذلك إلى مرسلها، بعد غيبة ما يقارب العشرين شهراً وبصحبتها

(١) انظر: A.S.Atiya: Op.Cit, P.241-2، وكذلك د.جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص٢٦٢.

(٢) A.S.Atiya: Op.Cit, P.243، كذلك د.جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص٥٦٢ وما بعدها.

رسل من الخاقان يحملون رسالة متعالية منه إلى لويس التاسع يطلب فيها من الملك الفرنسي تقديم الضرائب والهدايا له كضمان لإقرار السلام بينهما[١]، والذين قابلوا لويس في مدينة قيسارية بالديار المقدسة بعد إطلاق سراحه من الأسر إثر هزيمته في المنصورة وفشل حملته الصليبية التي قادها إلى مصر، الأمر الذي كان أبلغ في خيبةِ أملهِ وأشد نكايةً عليهِ.

ومع مرارة هذه الخيبة في عقدِ تحالفٍ مع المغول، أشرقت نفسه بالأمل من جديدٍ حينما ألمح له سفراء الخاقان بإمكانيةِ نجاحِ بعثات التنصير في بلادهم، لذلك، عاد فأرسل بعثةً أخرى مكونةً من الراهب الفرانسيسكاني (وليم روبروك)، وراهب آخر يدعى (برثولماوس دي كريمونا) يصحبهما تابع يسمى (نيقولا). اتجهت إلى جنوبِ روسيا عن طريقِ القسطنطينية في سنة ١٢٥٢م، حيث كان أولُ لقاءٍ لها مع (سارتاك خان) عند نهر الفولغا، والذي كان قد أشيع عنه أنه تنصر، وبالرغم من أنه تبين لتلكَ البعثة عدم صحة تلك الإشاعة إلا أن (روبروك) طلب من الخان في تلك المقابلة السماح له بالبقاء في تلك النواحي للعمل على تنصير مغولها، ولكن الخان لم يرغب في تحمل مسئولية هذا الأمر، فأرسل روبروك وصحبه إلى أبيه (باتوخان) الذي سبق ذكره، والذي رأى هو الآخر عدم تحمل تلك المسئولية فأرسلهم لمقابلة الخاقان (منكوخان) في قراقورم[٢].

وصل روبروك ومرافقوه إلى بلاط الخاقان بعد رحلة طويلة وشاقة يحدوهم الأمل في تنصيره، وبالرغمِ من ترحيبهِ بهم وما أظهره تجاه

---

(١) انظر د.جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص٢٦٩.

(٢) انظر R.Groussest: Histoire des Croissades du reyame France d' Jerosalem, Tom III, P.494.

وانظر كذلك د.جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص٢٧١ وما بعدها.

المسيحية الكاثوليكية من تسامح، وحضوره معهم قداساً في كنيسة للنساطرة حيث أحرق له البخور وباركه الكهنة، وبالرغم من قيام زوجته الثانية التي كانت مريضة بتقبيل صليب فضي أمام راهبين كانا يحملان الإنجيل وشفائها من مرضها كما يقول روبروك في مذكراته التي سجل فيها ما صادفه في سفره ورفعها إلى لويس بعد عودته، ثم الشائعات التي انتشرت وقتئذ بأنه قد جرى تعميد هذه الزوجة فيما بعد، وبالرغم من إقامة البعثة مدة طويلة في المقر الإمبراطوري، بالرغم من كل ذلك، إلا أن هذه البعثة لم تحقق النتيجة المرجوة، وما اعتبره روبروك وصحبه في البداية ميلاً للمسيحية، تبين أنه لم يكن إلا تسامحاً غير مقصور على الكاثوليكية أو على المسيحيين وحدهم، فقد اعتاد أتباع الديانات الأخرى من بوذيين ومسلمين منه هذا التسامح، إلى حد أنه كان يحضر احتفالاتهم الدينية، الأمر الذي جعل روبروك يعود إلى أوروبا حيث حمَّله (منكوخان) رسالة تتضمن رده على رسالةِ لويس التاسع تاركاً زميله (برثولماوس دي كريمونا) ليستمر في ممارسة نشاطه التنصيري بين المغول، ذلك الرد الذي لم يكن يختلف في مضمونه عن رده السابق إلى الملك الفرنسي، ورد (كيوك خان) الذي أرسله إلى البابا إنوسنت الرابع من قبل[1].

لم تكن بعثة روبروك هي آخر البعثات التنصيرية إلى المغول، فقد ظل الأمل في تنصيرهم يراود القائمين على الحركة الصليبية، وكان تسامح خاناتهم مع المسيحيين عاملاً رئيسياً في بقاءِ جذوةِ هذا الأمل، وقد قام هيثوم الأول ملك أرمينية المسيحي وخلفاؤه بدورٍ فعالٍ في إيجادِ نوعٍ منَ التقارب بين المغول والغرب الأوروبي على أمل إيجاد أسس راسخة

(١) انظر د.جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص٢٧٧ وما بعدها.

للتعاون بين الطرفين، وفي سبيل ذلك قام بدور رئيسي في إقناع (منكوخان) بإرسال تلك الحملة التي قضت على الخلافة العباسية في بغداد بقيادة (هولاكو) والتي استمرت في زحفها فاجتاحت قسماً كبيراً من بلاد الشام حتى حيل بينها وبين تقدمها جنوباً إلى مصر بإنزال هزيمة ساحقة بها في معركة (عين جالوت). ومع ذلك، فقد بقي الخطر المغولي جاثماً على حدود بلاد الشام الشرقية ينتظر الفرصة المواتية، مما أبقى تطلع كلا الطرفين للآخر قائماً. ومن هذا المنطلق، استقبل لويس التاسع سفارة مغولية أخرى بعد عودته إلى فرنسا من الشرق، وبالتحديد قبيل قيامه بحملته الصليبية على تونس، وقد عرضت عليه تلك السفارة التعاون بين الطرفين حينما تناهت الأنباء إلى خان مغول بلاد فارس بقرب قيام لويس بحملته تلك والتي كان من المقرر لها أن تتجه إلى المشرق، وبعد مناقشة هذا العرض أرسلها إلى روما لمقابلة البابا أيضاً، ولكن هذه الاتصالات كسابقاتها لم تسفر عن شيء يذكر[١].

وقد تجدد الأمل في تنصيرِ المغول ثانيةً حينما عاد الأخوان (نيقولا)، و(ماثيو بولو) التاجران البندقيان من رحلتهما الشهيرة إلى الشرق، وتيسر لهما خلال تلك الرحلة أن يصلا إلى بلاط الخاقان (قوبلاي خان)، فقد أبلغا البابا جريجوري العاشر عند عودتهما أن الخاقان لا يمانع في إيفاد بعثات تنصيرية إلى إمبراطوريته، ولكن البابا كان وقتئذ يواجه حوادث جساماً وأوضاعاً تستدعي أن يوجه إليها كل اهتمامه، أهمها فشل حملة لويس التاسع على تونس ووفاته التي خلفت فراغاً كبيراً في أوروبا، ثم محاولة تدعيم وجود الصليبيين في الجزءِ الصغير الذي بقي في أيديهم من بلاد الشام والذي كان ينتظر السقوط في أيدي سلاطين المماليك، فضلاً

---

(١) انظر Albert Garreau: Saint Louis et San royame, P.187-8.

عن الوضع الذي نجم عن طرد اللاتين من القسطنطينية، في تلك الآونة وعودة قيام الدولة البيزنطية فيها، والتي لم تكن تبعاً لذلك وللخلافِ المذهبيِّ بين الطرفين على وفاق تام مع الغرب. كل تلك العوامل جعلت البابا المذكور لا يبادر إلى اغتنام الفرصة ويرسل البعثات التنصيرية في الوقت المناسب، مما جعل (ماركوبولو) يوجه اللوم بعد ذلك إلى البابا لتقاعسه في الاستجابة للخاقان، ويزعم أنه لو كان قد أرسل تلك البعثات لتحولت الصين كلها إلى الكاثوليكية[1].

ولا يعني ذلك أن إيفاد البعثات التنصيرية إلى الشرق قد توقف منذئذ، بل تذكر المصادر التاريخية أن هنالك بعثات قد أرسلت في أوقات متلاحقة منذ بداية الربع الأخير من القرن الثالث عشر للميلاد، كان أهمها جميعاً تلك البعثة التي ترأسها الراهب (جوفاني دي مونتي كورفينو) الذي ذهب إلى بلاد فارس حيث أسس مقر إرسالية مسيحية فيها ثم غادرها إلى الهند وأقام فيها مقر إرسالية مماثلة في (ملبار)، ومنها انتقل إلى الصين في سنة ١٢٨٩م حيث تلقاه الخاقان بالحفاوة والترحاب، وأذن له في إلقاء مواعظه الدينية في أي مكان يشاء من إمبراطوريته، وسمح له ببناء كنيسة، وتبع تلك البعثة بعثات أخرى، إلا أن ما حققته جميعاً من نتائج لا يكاد يذكر إذا ما قورن بالجهود التي بذلت.

وهكذا، فإن كل هذه المحالات والجهود التي بذلتها الحركة الصليبية لاجتذاب المغول إليها سياسياً ودينياً لم تؤد في النهاية إلى النتيجة المرجوة منها مما جعلها تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى كادت تتلاشى، ويعود ذلك في اعتقادنا إلى عدة أسباب أهمها أن المغول استنكفوا على ما يبدو

(١) انظر A.S.Atiya: Op.Cit. P.246-8، وكذلك د.جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص٢٨٥ وما بعدها.

من التبعية للغرب الأوروبي سياسياً أو دينيا على حد سواء، ويظهر ذلك بوضوح في ردود خاقاناتهم على رسائل البابا إنوسنت الرابع ولويس التاسع، حيث بيَّن (كيوك خان) أن البابوية ينبغي أن تكون تابعة له وتسير وفق مشيئته وليس العكس، واعتبر (منكوخان) هدايا لويس التاسع ضريبة يشتري بها الملك الفرنسي صداقته والسلام معه.

ومما لا شك فيه، أنه كان للمسيحيين النساطرة دور كبير في هذه النتيجة، فقد كان هؤلاء قد سبقوا هذه الاتصالات إلى بلاطات خانات المغول بفترة طويلة تعود إلى ما قبل القرن السابع الميلادي وربما إلى العهد الأول لانتشار المسيحية، إلا أن الثابت تاريخياً أن نشاطهم امتد إلى الصين منذ أوائل ذلك القرن، إذ تذكر بعض النقوش المسيحية التي كتبت باللغة الصينية إلى أنه كانت لهم كنيسة في الصين شيدت سنة ٦٣٨م، وأن أحد أباطرة الصين أمر في نفس تلك السنة ببناء أبرشية لقسيس فارسي تتسع لعشرين راهباً، كما سمح لذلك القسيس بممارسة النشاط التنصيري، حيث بدأ عدد هؤلاء منذئذ بالازدياد، حتى إذا أهلَّ الطورُ الذي نبحث فيه، كان هؤلاء النساطرة قد انتشروا بين المغول، واستقر بعض رهبانهم في بلاطات خاناتهم، وكانوا يحظون فيها بنصيب وافر من الرعاية والتقدير، وأصبحوا تبعاً لذلك يتمتعون بقدر من النفوذ زاد فيه اعتناق بعض كبار الشخصيات المغولية للديانة المسيحية على هذا المذهب مثل أم الخاقان (منكوخان)، وبعض وزراء (كيوك خان)، وزوجة (هولاكو) الأولى والمقدمة على بقية زوجاته (دوقوز خاتون)، وغير هؤلاء، فضلاً عما يقوله (روبروك) في مذكراته من أن النساطرة كانوا يعملون بهمة ونشاط في ظل ما نعموا به من عطف الخاقان وأركان الدولة إلى حد أنهم عَمَّدوا ليلة

العيد الكبير أكثر من ٦٠ شخصا[١]، وبناء عليه، ونظرا للخلاف المذهبي بين النساطرة والكاثوليك، وإدراك هؤلاء النساطرة لأهداف الحركة الصليبية، فقد أسهموا بدور بارز في تمييع موقف خانات المغول من هذه الاتصالات.

ولم يقف فشل جهود حركة التنصير مع المغول عند هذا الحد، بل لم تكد تمضي فترة وجيزة حتى حدث ما كانت تخشاه وعملت المستحيل للحيلولة دون حدوثه ألا وهو انتشار الإسلام بينهم، ذلك أن هؤلاء، أخذوا يدخلون في هذا الدين الحنيف نابذين ما هو سواه. فاعتنقه أولا مغول القبيلة الذهبية التي كانت تسيطر على جنوب روسيا، وأقام خاناتها علاقات قوية مع السلطان الظاهر بيبرس عاهل الدولة المماليكية، ثم تبعهم بعد ذلك مغول فارس والقفقاس والعراق، وسرى نور الإسلام إلى أرواحهم وأشرق في قلوبهم فخلَّصها من أمراض الوثنية كما يفعلُ الدواءُ الناجع في الجسدِ العليل، وهكذا فشلت جهود حركة التنصير في هذا الميدان فشلاً ذريعاً، الأمر الذي جعلها تقلص جهودها في ميدان المشرق عموماً لتلقي بقدر كبير من ثقلها في ميدان آخر هو المغرب العربي.

المغرب العربي وحركة التنصير:

كان المغرب العربي بعامة وإفريقية بمدلولها التاريخي - حالياً الجمهورية التونسية تقريباً - بخاصة قد استحوذ على اهتمام حركة التنصير بصفة مستمرة لعدة عوامل أهمها حنين الغرب الأوروبي الدائم لأمجاد المسيحية الكاثوليكية في ربوعه قبل الفتح الإسلامي. وإلى تلك العلاقة

---

(١) انظر A.S. Atiya: Op.Cit, P.245، وكذلك د. جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص٢٨٠.

القوية بين كنيستي روما وقرطاجة إلى حد أن ثانيتهما كانت في نظر البابوية ابنة الأولى، يضاف إلى ذلك تلك المكانة السامية التي تبوأتها كنيسة قرطاجة في العالم المسيحي بوصفها إحدى الكنائس الأولى الست في العالم المسيحي وهي كنائس: (بيت المقدس، الاسكندرية، أنطاكية، القسطنطينية، روما، قرطاجة)، فكان فيها كرسي الجاثليق المشرف على سبعمائة كنيسة أسقفية، وكانت قرطاجة مدينة المجامع الشهيرة التي كانت نور العالم المسيحي لمدة طويلة على حد تعبير الكاردينال لافيجري[1]، فضلاً عما أنجبته من علماء ومفكري المسيحية الذين يعتبرون من أبرز آباء الكنيسة الأُوَل مثل ترتليان، وسيبريان، وأوغسطين، الأمر الذي كان يحرك في نفوس الأوروبيين الغربيين نزعةَ استعادةِ هذه البلاد من المسلمين باستمرار، وبالتالي جعل الحركة الصليبية تستهدفها وتخصها بقدر كبير من اهتمامها على الدوام، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية قرب المغرب العربي من الغرب الأوروبي مركز الحركة الصليبية وأهميته الاستراتيجية بالنسبة لهذا الغرب، فضلاً عن أنه يشكل معظم العدوة الجنوبية للبحر المتوسط مركز النشاط والحركة في العالم القديم.

لذلك، فإن حركة التنصير بدأت تمارس نشاطها في أرجائه منذ وقت مبكر، يعود إلى عهد انحسار ظل الدولة الفاطمية عن تلك المنطقة وتمزقها إلى دول وكيانات عديدة أهمها الدولة الزيدية في إفريقية أو المغرب الأدنى، والدولة الحمادية في المغرب الأوسط - الجمهورية الجزائرية في عصرنا الحاضر تقريباً -، ويمكننا أن نستشف هذا النشاط من رسالتي البابا أولاهما في سنة ١٠٧٣م، وثانيتهما في سنة ١٠٧٦م حيث يوصيهم فيهما ولا سيما في الثانية منهما بين أمور أخرى بتحريض المسلمين من حولهم

(١) انظر د. الحبيب الجحاني: من قضايا الفكر ص١٤٢.

على الدخول في المسيحية، ويحثهم على أن يكونوا القدوة الحسنة للمسلمين بتعاونهم وتوادهم وتراحمهم، فتلك هي الطريقة المثلى في نظره لاجتذابهم إلى هذه الديانة، وليس بالاستعلاء عليهم والابتعاد عنهم والصَّدِّ عنهم واجتناب التعامل معهم أو احتقارهم والازدراء بهم، فهو بذلك يطلب من هؤلاء أن يصبحوا منصرين ويثبتوا الدعوة المسيحية بين مواطنيهم من المسلمين.

وأرسل مع ثانية هاتين الرسالتين رسالة إلى الأمير الناصر بن علناس عاهل الدولة الحمادية في المغرب الأوسط الذي كانت مدينة بونة (عنابة) تابعة له، رداً على توصية الأمير المذكور برسم (سيرفاندوس) أسقفاً لتلك المدينة بعد أن انتخبه مسيحيوها لهذا المنصب، والتي لا مجال للتعرض لها بالدراسة والتحليل في هذا المقام، ولكن يمكننا إجمال ذلك بالقول أن دعوة البابا المذكور للأمير الناصر الحمادي للتنصر تظهر بوضوح في ثنايا عبارات التقريض والمجاملات، وتزداد أهمية هذه الدعوة إذا أعدنا إلى الذهن أنه كان لجهود هذا البابا ونشاطه الصليبي دورها البارز في دخول الحركة الصليبية في طورها النشط والذي كان من أهم إفرازاته العدوان الصليبي الذي شنه الغرب الأوروبي على الوطن العربي في المشرق والمغرب على حد سواء، وتبعاً لذلك، كانت هذه الرسائل الثلاث وبخاصة الأخيرة منها التي يعلق عليها (نورمان دانيال Norman Daniel) بقوله إنها تتضمن قدراً واضحاً من الروح الصليبية[1]، عبارة عن نقطة البداية لنشاط حركة التنصير في ميدان إفريقية في هذه المرحلة.

وإذا كانت حمى هذا الصراع الإسلامي الصليبي المسلح قد اشتدت في العقد التالي على تاريخ هذه الرسائل، ذلك العقد الذي شهد اشتداد حدة

---

(١) Norman Daniel: The Arabs and medieval Europe, P.250.

العدوان الصليبي الكبير على المسلمين في غرب العالم الإسلامي في جبهات هذا الصراع الثلاث: الأندلس، وصقلية، وإفريقية، وما تلا ذلك من زحفٍ صليبي على المشرق، قد شَغلت الحركةَ الصليبيةَ عن مواصلةِ جهود التنصير في ذلك الميدان لفترةٍ من الوقت، فإنَّ الأمر لم يطل بها كثيراً، إذ عقدت آمالها على نورمان صقلية الذين أخذوا منذ استكمالهم الاستيلاء على جزيرة صقلية، يتطلعون للوثوب إلى البر الإفريقي وبالتالي استئناف نشاطها في ظل هذا الاحتلال. وفعلاً استغل روجار الثاني النورماني ملك الصقليتين ما وصلت إليه إفريقية من ضعف في ظل عهد الفوضى السياسية والاضطراب الذي خيم عليها منذ الهجرة الهلالية إليها في أواسط ذلك القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد)، وشرع في مهاجمة ساحلها فسقطت في يده كبريات مدنها الساحلية مثل طرابلس وسفاقس وقابس والمهدية وتونس وبجاية وبونة خلال فترة وجيزة، في حين كانت مدنها الباقية تنتظر نفس المصير، الأمر الذي جعل القائمين على الحركة الصليبية يعتبرون انتصاراته هذه في إفريقية هي التعويض الذي نالته تلك الحركة عن الفشل الذي منيت به الحملة الصليبية الثانية في المشرق.

ومنذئذ أخذ روجار يعمل بعزم وتصميم كبيرين على تثبيت أركان هذا الاحتلال لإفريقية، ولم يغب عنه دور التنصير في هذا التثبيت بطبيعة الحال، الأمر الذي جعله يحظى بقدر كبير من عنايته. إلا أن وفاته بعد ذلك بفترة وجيزة، وضعف خلفائه عن النهوض بهذه المهمة، ثم والأهم من ذلك اشتعال الثورة في المناطق المحتلة ضد النورمان الغاصبين، وظهور دولة الموحدين كقوة كبرى في غرب العالم الإسلامي، ودخولها معترك الجهاد ضد القوى الصليبية في المنطقة - ومن ضمنها النورمان -، حيث زحف عبدالمؤمن بن علي، خليفتها الأول بجيوشه إلى إفريقية وطردهم من المهدية آخر معاقلهم فيها بعد أن كانت المدن والنواحي

المحتلة الأخرى قد تحررت بقوتها الذاتية، وبالتالي تم توحيد معظم غرب العالمي الإسلامي تحت لواء هذه الدولة، كل ذلك جعل الظروف غير مواتية وقتئذ لنشاط حركة التنصير في تلك البلاد، مما جعله يتراجع إلى حد كبير لمدة دامت حوالي النصف قرن.

وحينما آذنت شمس الدولة الموحدية المجاهدة بالمغيب، وبدأت بوادر تمزق المغرب العربي تبرز من جديد، عاد نشاط حركة التنصير إلى المنطقة ثانية بحضور قوي وبشكل منظم، وكان رهبان منظمتي الفرانسيسكان والدومنيكان الذين أخذوا يتوافدون إليها منذ مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) غير مبالين بالمصاعب التي يصادفونها وحتى الموت في سبيل تحقيق أهدافهم، هم الذين قاموا بالدور الأكبر في هذا النشاط. وأول إشارة تظهر في المصادر التاريخية عن نشاط هؤلاء الرهبان هي محاولة القديس فرانسيس مؤسس منظمة الفرانسيسكان تنفيذ الخطة التي وضعها للعمل على تنصير المغرب العربي التي سبقت الإشارة إليها، ثم ما تشير إليه وثائق منظمة (الثالوث المقدس The Most Holy Trinity) من أن (حنا دي ماثا Saint Jean de Mathe) مؤسس هذه المنظمة والذي توفي في سنة ١٢١٣م قد زار إفريقية عدة مرات وبالذات مدينة تونس التي زارها في السنوات ١٢٠٤، و١٢٠٩، و١٢١٣م قبل وفاته ببضعة أشهر، وأنه أسس بحي النصارى في تلك المدينة كنيسة صغيرة ومستشفى، ومع أن المستشرق الفرنسي برنجفيك يشك في صحة ما جاء في هذه الوثائق عن هذا الموضوع، إلا أنه يعتقد بأن بعض أعضاء هذه المنظمة زاروها في حدود سنة ١٢١٥م وتمكنوا بإذن من واليها الشيخ عبدالواحد من تحرير ٢١٤ أسيراً مسيحياً كانوا فيها[١].

---

(١) =R. Brunschvig: La Barbarie Orientale Sous les Hafsides des origines &

وفي سنة ١٢١٩م شكل القديس فرانسيس الآنف الذكر خمس بعثات تنصيرية أرسلت واحدة منها إلى المغرب الأقصى، وأخرى إلى إفريقية. أما البعثة التي أرسلت إلى المغرب الأقصى فقد تم إعدام أعضائها جميعاً في مراكش في ١٦ يناير سنة ١٢٢٠م لأنهم لشدة حماسهم أصروا على ممارسة نشاطهم ودعوة المسلمين علناً للتنصر، ضاربين بكل النصائح التي وجهت إليهم من التجار الأوروبيين المقيمين في تلك البلاد عرض الحائط، مما أثار المسلمين عليهم بطبيعة الحال، وجعل الخليفة الموحدي يلقي القبض عليهم ويعدمهم نظراً لإصرارهم على موقفهم المعادي للإسلام، وقد علق القديس فرانسيس حينما علم بإعدامهم بقوله: (الآن أستطيع القول أن لي خمسة إخوة حقاً)[١]. وقد تداول الناس في أوروبا الغربية أخبارهم وسيرهم إعجاباً بتضحيتهم، مما جعل فرانسيس المذكور يمنع قص سيرهم قائلا: إن على كل أخ - أي عضو في منظمته - أن يفخر بأعماله وليس بآلام وعذاب الآخرين[٢].

وأما البعثة التي أرسلت إلى إفريقية، فقد ترأسها راهب يدعى (جيلز الأسيزي Giles of Assisi)، وتقول حولية (The Longer Life) أن أعضاء هذه البعثة أفرطوا في الدعوة علناً للمسيحية بين مسلميها ودون أدنى تحفظ لحماسهم الشديد هم الآخرون لخدمة حركة التنصير، مما أثار المسلمين عليهم، فاضطر المسيحيون الأوروبيون الذين كانوا يقيمون فيها إلى

= la fin du XV siecle, Tom 1, P.455.

(١) R. Brunschvig: Op.Cit, Tom 1, P.458, E.R. Daniel: Op.Cit, P.42.

(٢) Gisele Chovin: A perca Sur les relation de la France avec le Maroc des origines a' la rin du Mayan age, P.280-1., E.R.Daniel, Op.Cit, P.42.

إجبارهم على مغادرة البلاد[١]، ويبدو أن فشل هذه البعثة كان له أثره القوي على جيلز، إذ دخل بعد عودته من إفريقية في عزلة للتأمل والعبادة، وحينما وجه له أحد زملائه الفرانسيسكان النقد على هذه العزلة التي اعتبرها نوعاً من السلبية، رد عليه بقوله: (إنه ذهب إلى بلاد المسلمين لأن حبه للمسيح جعله يتحرق شوقاً للشهادة، ولكنه الآن يرى أنه ما كان عليه أن يرغب في الموت شهيداً بيد المسلمين)[٢]، وبقي في عزلته حتى وفاته.

وفي سنة ١٢٢٧م خرجت بعثة فرانسيسكانية أخرى من إقليم توسكانا بإيطاليا قاصدة المغرب العربي كانت مكونة من سبعة منصرين، وما أن وصل هؤلاء إلى مدينة (سبتة) حتى بدأوا يدعون للمسيحية بين المسلمين متجاهلين نصائح التجار النصارى الذين كانوا في المدينة بالحذر، فألقي القبض عليهم وسيقوا إلى مراكش حيث أعدموا في ١٠ أكتوبر من ذلك العام بعد أن فشل الخليفة الموحدي في إقناعهم بالعدول عن أقوالهم المخالفة لعقيدة المسلمين وعن الطعن في الإسلام، وتَصِفُهم بعضُ المصادر المسيحية بأنهم رجال وهبوا أنفسهم للعبادة وخدمة الله، توقَّدتْ أرواحهم حماساً، متعطشون للعمل بكل طاقاتهم لتخليص أرواح المسلمين - أي تنصيرهم -، وكان كُلٌّ منهم على أهبةٍ تامة للموت إذا استطاع أن يقدم لله هذه الثمرة الطيبة من بين الكفرة - أي المسلمين!!! -، وقد بقي جزء من الرسالة التي كتبوها من السجن إلى قسيس من جنوه يدعى (هوجو Hogo) يصفون فيها معاناتهم التي يقولون أنهم اقتدوا في تحملها بالمسيح

---

(١) E.R.Daniel: Op.Cit., P.42, Gisele Chovin: Op.Cit., P.281.

(٢) E.R.Daniel: Op.Cit., P.43, Gisele Chovin: Op.Cit., P.281.

عليه السلام الذي تحمل في زعمهم الآلام وعذاب الصلب فداء للبشرية[١]!!!

ولا يستبعد أن يكون رهبان الدومينكان قد قاموا هم الآخرون بإرسال بعثات تنصيرية مماثلة في تلك الفترة، ولكن أول إشارة في المصادر التاريخية لوجودهم تعود إلى سنة ١٢٣٥م في شكل رسالة أرسلها (رامون البنيافورتي Fr. Ramon de Penyafort) الذي سنتعرض لذكره بعض قليل، رداً على رسالة وجهها إليه أحد الرهبان المنصرين من منظمته الذين كانوا يقيمون في إفريقية تتضمن فتوى منه بشأن بعض الخطايا[٢]، وهكذا يمكننا القول بأن حركة التنصير استأنفت نشاطها في إفريقية مذ ذاك، وقد بذلت جهوداً ملحوظة منذ العقد الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، مستغلةً في ذلك تسامحَ أميرها أبي زكريا الأول الحفصي من ناحية، وفترة الانتقال من تبعيتها للدولة الموحدية إلى الاستقلال عنها وتأسيس الدولة الحفصية فيها من ناحية ثانية، وتشير عدة أدلة تاريخية أهمها الرسائل المتبادلة بين البابا جريجوري التاسع والامبراطور فردريك الثاني بشأن موضوع رغبة الأمير عبدالعزيز الحفصي ابن أخي الأمير أبي زكريا الأول في التنصر، وهو موضوعٌ لا مجال لبسطه في هذا المقام، التي تشير إلى وجود بعثة تنصيرية كانت في إفريقية وتعمل باطمئنان ولها اتصالات وثيقة بالبابوية، وبملك أرغونة، فضلاً عن رئيس منظمة الدومينكان رامون البنيافورتي الآنف الذكر[٣].

---

(١) Gisele Chovin: Op.Cit, P.281, E.R.Daniel: Op.Cit, P.43.

(٢) انظر: R. Bronschvig: Op.Cit, Tom 1, P.461.

(٣) انظر R.Brunschvig: Ibid, Tom 1, P.466, Norman Daniel: Op.Cit., P.162-3.

وقد أكد ذلك وثيقتان أخريان، أولاهما رسالة كتبها ذلك البابا في سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م يتعرض فيها لهذا الموضوع، وثانيهما رسالة كتبها رامون البنيافورتي عند استقالته من رئاسة منظمة الدومنيكان في سنة ١٢٤٠م إلى خلفه في رئاسة تلك المنظمة تلقي مزيداً من الضوء على جهود المنصرين الدومنيكان في إفريقية في تلك الآونة، إذ أنها تبين مقدار اهتمامه بتلك البعثات، ويوصيه بإرسال المزيد منها وإصراره على ضرورة تعليم الرهبان المنصرين لغات الأقوام الذين يوفدون إليهم وبخاصة اللغة العربية لمناظرة المسلمين وإقناعهم بالتنصر. ويشير في تلك الرسالة إلى أن المنصرين الدومنيكان الذين كانوا في إفريقية وقتئذ تمكنوا من كسب تعاطف بعض رجالات الدولة والأهم من ذلك تعاطف الأمير نفسه معهم(١)، هذا التعاطف الذي هو في حقيقته لا يعدو كونه تسامحاً من ذلك الأمير تجاه المسيحيين في دولته، فتوهَّمَ هؤلاء أنه ميلٌ منه نحو التنصر ودعمٌ لجهود التنصير، لأن التسامح شيء لم يعرفه الأوروبيون آنذاك، ولم يعرفوا إلا التعصب الأعمى للكاثوليكية على غيرها من المذاهب والأديان وبصفة خاصة الإسلام.

وفي نفس الوقت كانت هنالك جهود مماثلة تبذل بالنسبة لباقي المغرب العربي، يؤكدها تلك المراسلات التي تبودلت بين البابا إنوسنت الرابع والخليفة المرتضى الموحدي، وما صاحب ذلك من قيام هذا البابا بإرسال أحد أبرز العاملين في ميدان التنصير ومن أكثرهم نشاطاً هو (لوب فيرناندو دي إين Lope Fernando d' Ayn) إلى مراكش في سنة ١٢٤٦م بعد أن رسمه أسقفاً لكنيستها في مهمة متعددة الأغراض منها جمع شمل مسيحيي المغرب العربي، والإشراف على الجهود التنصيرية التي كانت تبذل وقتئذ

(١) E.R.Daniel: Op.Cit., P.9.

في ربوعه وتنظيمها، ثم العمل على تنصير الخليفة المرتضى الموحدي، فضلاً عن أغراض سياسية أخرى، وقد صرح البابا المذكور وقتئذٍ بأنه يرى الإمكانية متاحة لازدهار الكاثوليكية من جديد في تلك البلاد الإسلامية، وانطلاقاً من ذلك بوشر في مضاعفة هذه الجهود وتكثيفها في جميع أرجاء المغرب العربي[١].

وبوفاة الأمير أبي زكريا الأول، واعتلاء ابنه المستنصر عرش الدولة الحفصية في سنة ١٢٤٧م، ولما كان يتحلى به هذا السلطان من تسامح كبير تجاه المسيحيين فاق فيه حتى والده، زاد نشاط حركة التنصير في إفريقية، لذلك سارعت البابوية إلى التحرك في هذا الاتجاه، يؤكد ذلك، تلك الرسالة التي بعث بها البابا الإسكندر الرابع آنذاك إلى رئيس منظمة الدومنيكان يأمره فيها بإرسال المزيد من منصري منظمته إلى إفريقية، وأعطى انتخاب (همبرت الرومانسي Humbert of Romans) في سنة ١٢٥٤م رئيساً لمنظمة الدومنيكان دفعة قوية لنشاط حركة التنصير في هذا الميدان نظراً لحماسه الشديد لتطوير هذا النشاط ولطموحاته الواسعة حيث كان يأمل أن يتمكن رهبان منظمته تحت رئاسته (من سنة ١٢٥٤ إلى سنة ١٢٦٣م) من تنصير كافة المسلمين واليهود وغيرهم فضلاً عن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية[٢]، وتبعاً لذلك، تضاعفت هذه الجهود وكثرت الاتصالات مع المستنصر الحفصي والتي كان من أهم النتائج التي حققتها تلك الاتصالات إنشاء المدرسة العربية (Studium Arabicum) في مدينة تونس في تلك الفترة والذي كان أول معهد يقام في بلاد المسلمين لتعليم الرهبان المنصرين اللغة العربية. كما أخذ العديد من مشاهير أعلام حركة

---

(١) انظر عن ذلك E.Tisserant & G.Wiet: Op.Cit., P.47.

(٢) E.R.Daniel: Op.Cit., P.11.

التنصير يتوافدون إلى إفريقية لدفع هذه الجهود إلى الأمام نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الراهب (أندريه دي لونججيموه) الذي كان قد ترأس بعثة تنصيرية إلى المغول كما سبق ذكره، حيث نجح في أن يصبح أحد المقربين من السلطان الحفصي وأقام في تونس مدة تقارب الخمسة عشر عاماً يدرس الأوضاع في إفريقية ويضع الخطط لتنصير مسلميها.

وكان (رامون مارتي Ramon Marti) الشخصية الثانية التي وفدت إلى تونس في تلك الفترة أيضاً، والذي يعتبر من أشهر المنصرين في القرن الثالث عشر، وكان يلقب بخنجر الإيمان المسلول على المسلمين واليهود، حيث تعلم اللغة العربية في المعهد الآنف الذكر إلى أن أجادها حتى نسب إليه معجم عربي - لاتيني، وعقد الأمل على أنْ تعينه معرفتُه باللغة العربية على مهمته التنصيرية، فأقام في تونس مدة طويلة، وأصبح هو الآخر أحدَ المقرَّبين من المستنصر الحفصي إذ ربطته به صلةُ صداقةٍ قوية، كما كان على اتصالٍ وثيق بلويس التاسع ملك فرنسا، وبرامون البنيافورتي[1]، ونظرا لصلته القوية بالعاهلين الآنفي الذكر، فإن بعض المراجع الغربية تشير إلى أن اتجاه لويس التاسع بحملته الصليبية إلى إفريقية إنما كان بوحي منه طمعاً في تنصير سلطانها ورعاياه[2].

ولم يقتصر نشاط حركة التنصير وقتئذ على جهود هؤلاء، وإنما كان هنالك العديدون غيرهم وبصفة خاصة من رهبان الفرانسيسكان والدومنيكان، بالإضافة إلى رهبان المنظمات الأخرى الذين كانوا جميعاً يجوبون أقطار المغرب العربي لهذه الغاية تحت شعارات معلنة مختلفة

(١) R.Brunschvig: Op.Cit., Tom 1, P.462. E.R.Daniel: Op.cit, P.11.

(٢) انظر شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي، البشير سلامة، ج٢ ص١٨٠.

نذكر منها رهبان (منظمة الثالوث المقدس) التي سبق ذكرها[1]، ومنظمة (عذراء الرحمة The Order of our Lady of Mercy) أو (Notra - Dam de la Merci)[2] الذين كانوا يقومون بالبحث عن الأسرى المسيحيين في

---

(١) تأسست هذه المنظمة في أواخر القرن الثاني عشر واعتمد البابا تأسيسها في سنة ١١٩٨م، وكان الهدف الرئيسي من إنشائها هو العمل على فداء الأسرى المسيحيين الذين كانوا يوجدون في بلدان المغرب العربي والعناية بهم، وكان مقرها (سانت مارتن Saint Martin) بباريس، وكان أعضاؤها يلقبون بإخوة الحمير (Matorins) أو (Donkey Brothers) ولقبوا بذلك لاستعمالهم الحمير في تنقلاتهم، وقد باشرت هذه المنظمة نشاطها في سنة ١١٩٩م بإرسال بعثة إلى مراكش. ثم توالت بعثاتها التي أخذت تجوب أنحاء المغرب العربي بحثاً عن الأسرى، وكانت خلال تجوالها تمارس النشاط التنصيري بين المسلمين ولكن بحذرٍ وتحفظ خشية إثارة حفيظتهم عليهم، وكانت هذه المنظمة وثيقة الصلة بلويس التاسع ملك فرنسا، فكان يصحب بعض أعضائها معه في حملتيه الصليبيتين، كما اختار بعض قساوستهم ليكونوا من المقربين منه، وقد اتسع نشاط هذه المنظمة خلال القرن الثالث عشر للميلاد، حتى أصبح لها قبل نهايته أكثر من مائة مركز، وكان لها صلة بالعديد من ملوك وأمراء أوروبا بالإضافة إلى لويس التاسع فضلاً عن البابوية.

(انظر عن ذلك R.Bronschvig: Op.Cit., Tom 1, P.455،

وكذلك: S.Clissoide: The Barbary slave, P.13-14).

(٢) أسس هذه المنظمة فرنسي من كراكسون يدعى بطرس نولاسكو St. Peter Nolasco ربما في سنة ١٢١٨م، وكان قد ترك موطنه واستقر في أرغونة واتصل بملكها خايمي الأول، وقد وضع نظامها بالتعاون مع رامون البنيافورتي وكانت ذات طبيعة دينية وعسكرية، وكان الغرض الأساسي من إنشائها هو العمل على إطلاق سراح الأسرى المسيحيين الذين كانوا يتواجدون في دول المغرب العربي، وكان أعضاؤها يرهنون أنفسهم لدى المسلمين مقابل إطلاق سراح هؤلاء الأسرى ويظلوا رهائن حتى تدفع الأموال المقررة للفداء، وخلال تجوالهم واتصالاتهم =

أقطار المغرب العربي لافتكاكهم ويمارسون نشاطهم التنصيري خلال ذلك حتى إن بعضهم أعدم في بجاية سنة ١٢٦٦م بسبب ذلك(١). ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى فريق آخر من رهبان تلك البعثات، هم ما يمكن وصفهم بمهووسي طلب الشهادة، إذ كان هؤلاء يقصدون بلاد المسلمين للتنصير، ولشدة حماسهم يهاجمون الإسلام علناً وعلى مسمعٍ من المسلمين بافتراءات مختلفة يفترونها عليه، وينعتون رسول الله ﷺ بأقبح النعوت، وبطريقة استفزازية لا يمكن للمسلمين أن يسكتوا عليها، وهدفهم من ذلك أن يقوم المسلمون بقتلهم، الأمر الذي كان يحدث أحياناً حتى ينال هؤلاء في زعمهم تاج الشهادة لكونهم ماتوا في سبيل نشر المسيحية(٢).

= بالمسلمين في أقطار المغرب العربي كانوا يقومون بنشاطات تنصيرية الأمر الذي كان كثيراً ما يؤدي إلى إعدامهم، وقيل إنهم قاموا في العقود الثمانية التالية على تأسيس منظمتهم حتى نهاية القرن الثالث عشر بحوالي سبعين رحلة إلى بلدان المغرب العربي والأندلس، وقد أعدم منهم في هذه الرحلات سبعة عشر عضواً، وزاد نشاطهم في القرن الرابع عشر وأعدم منهم الكثير في مدن تونس وعنابة وبجاية والقل، وكان غالبية أعضائها من القطلان، وفي سنة ١٤٠٣م أعلن مارتن ملك أرغونة حمايته لهذه المنظمة.

(انظر R.Brunschvig: Op.Cit., Tom 1, P.457. وكذلك E.Tisserant & G.wiet: Op.Cit., P.47، S.Clissoide: Op.Cit., P.14-15).

(١) انظر R.Brunschvig: Op.Cit., Tom 1, P.457. وكذلك E.Tisserant & G.wiet: Op.Cit., P.47، S.Clissoide: Op.Cit., P.14-15.

(٢) ظهرت هذه الفئة المتطرفة لأول مرة في الأندلس في عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢هـ) بجهود راهب متعصب اسمه (إيلوخيو Eulogio) الذي استطاع أن يؤثر في بعض القساوسة، فأخذوا يهاجمون الإسلام ويتقوّلون عليه وعلى نبيه ﷺ أقاويل مختلفة مبنية على الخرافات والأباطيل، =

وهكذا كان المغرب العربي في أواسط القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) يموج بأصناف الرِهبان المنصرين مستفيدين في ذلك من تدهور الأوضاع في الدولة الموحدية وسَيرها إلى الانحلال بخطى حثيثة مما جعل الفوضى تدبُّ في المغربين الأقصى والأوسط هذا من ناحية، وتسامح المستنصر الحفصي حاكم إفريقية من ناحية ثانية، وقد بلغَ نشاطُ هؤلاء أوجَهُ منذ مطلع العقد السابع من ذلك القرن، حتى تكوَّنَتْ لدى المنصرين

= وانقاد لهم عدد من الشباب المسيحي من الرجال والنساء والرهبان، فأخذوا يحرضونهم على الاستشهاد، وكانت طريقتهم في الاستشهاد عجيبة حقاً، فما كان على طالب الاستشهاد إلا أن يذهب إلى مكان عام كالمساجد والميادين العامة ويسب الإسلام والنبي علناً، فيلقى القبض عليه ويقاد إلى القاضي الذي يحاول إقناعه بالعدول عن أقواله، ولكنه يرفض ويكرر السب والتجريح فيأمر القاضي بإعدامه. وبدأت هذه المأساة على شكل حادث فردي ملخصه أن قسيساً في إحدى كنائس قرطبة اسمه (برفكتو Perfecto) دخل في نقاش مع أحد المسلمين حول فضائل ومميزات كل من محمد ﷺ وعيسى ﷺ، وتطورت المناقشة إلى جدال عنيف فقد القسيس فيه صوابه فسبَّ الإسلامَ والنبيَّ علناً فقبض عليه وأعدم فيي يوم الفطر سنة ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م، فاستغل (إيلوخيو) وغيره من زعماء هذا التيار المتطرف الحادث في الدعاية ضد الإسلام والمسلمين مما زاد في إشعال نار الفتنة وعمت البلاد موجة من التعصب الديني وكثر طالبو الشهادة الذين أعدموا لنيل الشهادة ولم تخف حدة هذه الحركة إلا بعد إعدام (إيلوخيو) نفسه في سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م، ومع ذلك فقد بقيت فكرةُ نيلِ الشهادة على يد المسلمين حيةً فيي أذهان البعض حتى أواخر العصور الوسطى ونلاحظ أن رامون لول الذي يعتبر من أشهر دعاة التنصير في العصور الوسطى قد مات بهذه الطريقة كما سيأتي ذكره.

(عن هذا الموضوع انظر د. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي ص٢٥٤ وما بعدها. كذلك د. السيد عبدالعزيز سالم: محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس ص١٩٥ وما بعدها).

الدومنيكان في إفريقية قناعةٌ بأنَّ تحقيقَ هدفهم أصبحَ قريبَ المنال، إلى حد أنهم كانوا في سنة ١٢٦٣م يزفون التهاني لبعضهم البعض على ما اعتقدوا أنهم توصلوا إليه من نتائج[١]، مع أنها كانت أوهاماً أقنعوا أنفسهم بها.

وتوجت هذه الجهود بتمكين بعض القائمين على حركة التنصير بخاصة رامون مارتي، وأندريه دي لونججيموه، من إقناع الملك الفرنسي لويس التاسع من تحويل حملته الصليبية الأخيرة إلى إفريقية لمساندة النشاط التنصيري فيها كما سبق ذكره، لاعتقادهم (وهو اعتقاد خاطىء) أنّ المستنصر الحفصي يرغب في التنصر ولكنه مترددٌ خوفاً مما سيجر عليه ذلك من متاعب[٢]، لذا فإن وجودَ جيشٍ صليبي كبير بقربه سيقضي على هذا التردد ويبعث في نفسه الاطمئنان، وبالتالي سيسارع إلى التنصر، وعندما يتم ذلك فإن رعيته سوف تقتدي به. وبناء عليه، فإنَّ تنصيرَ مسلمي إفريقية كان أحدَ أهدافِ تلك الحملة، ومع أنها فشلت في تحقيق معظم أهدافها، إلا أنها أبقت الباب مفتوحاً أمام النشاط التنصيري في تلك البلاد، ذلك أن معاهدة الصلح بين المستنصر الحفصي والصليبيين التي انسحبت تلك الحملة بموجبها قد تضمنت شرطاً واضحاً يقضي أن يفسح المستنصر المجال للمنصرين للقيام بنشاطاتهم دون أية رقابة أو اعتراض منه عليهم، هذا الشرط الذي لم يُوضَعْ إلا ترضيةً لحركة التنصير ومكافأة لها لقاء جهودها في تجهيز الحملة المذكورة.

لذلك، يُعتبر فشلُ هذه الحملة نقطةَ تحول في تاريخ الحركة الصليبية،

---

(١) R.Brunschvig: Op.Cit., Tom 1, P.465.

(٢) Guilloume de Nangis: Vita Sancti Ludovici Regi Franciaç, Ed. Hist. de Er., XX, P.449.

إذ رأى القائمون على هذه الحركة نتيجة لهذا الفشل في صدامها المسلح مع المسلمين، ضرورة مساندتها بدعامةٍ أخرى هي الصليبية السلمية أي التنصير كما تقدم ذكره، فبدأ العديد من هؤلاء ينادون باتباع أسلوب تنصير المسلمين بالإقناع وليس بالقوة العسكرية فقط، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: روجر بيكون، رامون البنيافورتي، رامون مارتي، رامون لول، أندريه دي لونججيموه الذين تقدم ذكر غالبيتهم، يؤكد ذلك أن رامون لول أطلق على هذا الأسلوب (نظرية السيفين)، أي إشهار سيف القوة العسكرية، وسيف التنصير على المسلمين، ويعتبر هذا الداعية الصليبي أشهر دعاة التنصير في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، ولهذا فإننا سنتعرض لجهوده التنصيرية بشيء من التفصيل بوصفها نموذجاً لنشاط هذا الرعيل الأول من المنصرين.

رامون لول والتنصير:

كان إيمان رامون لول بهذه الفكرة شديداً، لذلك كرس حياته لوضعها موضع التنفيذ مستفيداً في ذلك من عدة عوامل أهمها:

١- صلته القوية بملوك أرغونة[١] الذين كانوا لعلاقاتهم الطويلة والمتشعبة مع المسلمين سلماً وحرباً ولطموحاتهم الواسعة ومطامعهم في الوطن العربي وبخاصة في بلدان المغرب العربي، يساندون هذه الفكرة بقوة ويعملون على الاستفادة منها في تحقيق أهدافهم، يضاف إلى ذلك علاقاته الطيبة أيضاً مع بعض البابوات والكرادلة وملوك وأمراء أوروبا، فضلاً عن منظمتي الفرانسيسكان والدومنيكان إلى حد أن كلاً منهما ادعت

---

(١) انظر عن ذلك J.N.Hillgarth: Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France, P.2-3.

نسبته إليها، وكذلك مع رجالات الفكر وأساتذة الجامعات في أوروبا الغربية لا سيما جامعتي باريس ومونبلييه اللتين نالتا النصيب الأكبر من محاضراته.

٢- سعة اطلاعه على الثقافة العربية الإسلامية، وقد أعانه على ذلك معرفته باللغة العربية التي درسها لمدة تسع سنوات حتى أجادها(١) مما مَكَّنه من النهل من مناهل هذه الثقافة التي كانت وقتئذٍ في أوج ازدهارها حتى اعتبر أحد تلاميذها، حيث درس الفلسفة الإسلامية والتصوف وعلم الكلام والمنطق ومرنَ أساليبَ كبار المتكلمين المسلمين فضلاً عن فروع العلم والمعرفة الأخرى التي عرفها المسلمون.

٣- إرادته الصلبة وقوة عزيمته وتصميمه، والتي استمدها جميعاً من وَهْمٍ تَمَلَّكَ كيانَهُ مفادُه بأنه رأى السيد المسيح عليه السلام في بعض الليالي، فأمره بالإقلاع عن حياة الفسق والفجور التي كان يحياها وانغمس فيها حتى أذنيه، وتكريس نفسه لخدمته ولنشر المسيحية(٢)، يضاف إلى ذلك تَشَرُّبه الرُّوحَ الصليبيةَ إلى حد الإشباع لكونه من النصارى الإسبان الذين كانت قلوبهم مُفعمةً بكراهية المسلمين والحقد عليهم، بحيثُ لم يَتجاوزِ الحقيقةَ مَنْ وَصَفهم لشدة تعصبهم وتمسكهم بالمذهبِ الكاثوليكي أنهم كانوا كاثوليكيين أكثرَ من البابا نفسه.

ونتيجة لهذه العوامل كَرَّسَ ما تبقى من حياته منذ ذلك التحول الذي أشرنا إليه للعمل على تحقيق هدفه، فتارة يقوم بإعداد مشروع صليبي

---

(١) للمزيد من هذا الموضوع انظر D.O'conell: La Propose de Saint Louis, Presente's par David O'Connell, at Pre'face's Par Jacques le Goff., P.48.

(٢) انظر عن ذلك J.N.Hillgarth: Op.Cit., P.3.

متكامل لاحتلال الديار المقدسة في بلاد الشام يُضَمِّنُه آراءه ونظرياته والتي كان منها ما يتعلق بالتنصير بطبيعة الحال، يعرضه على البابوية أو على من يتوسم فيهم الدعم والمساندة لوضعه موضع التنفيذ، أو يعكف تارة أخرى على تصنيف المؤلفات بالعربية يعرض فيها موقف المسيحية من الدين الإسلامي بأسلوب جدلي وبطريقة الحوار والمناظرة حيث يقوم بعد ذلك هو أو أحد تلاميذه بترجمتها إلى اللاتينية أو القطلانية، والتي قيل إنها بلغت أربعة آلاف مصنف، وتارة ثالثة يقيم في موطنه مدينة (بالما) بجزيرة ميورقة لفترة من الوقت إما للاعتكاف في دير (Nestra Dona Dela Real) القريب من تلك المدينة للتأمل والعبادة أو للتدريس في كلية (ميرامار) التي أنشأها هناك لتعليم الرهبان اللغة العربية وإعدادهم كمنصِّرين[١]، أو لزيارة أسرته التي كانت تعيش في المدينة المذكورة أو لبيع بعض ممتلكاته ورصد ثمنها لدعم حركة التنصير.

ويشده الحماس تارة أخرى للسفر إلى الشرق لمقابلة غازان خان مغول فارس حيث علم بزحفه إلى بلاد الشام في سنة ١٢٩٩م آملاً أن يحقق أمنية عزيزةً على الحركةِ الصليبية هي عقدُ حلفٍ مع هؤلاء المغول للإطباق على العرب والمسلمين، ولعله ينجح أيضاً في تحقيق ما فشلت فيه البعثات التنصيرية والمتمثل في إقناعهم بالتنصر، فيصل إلى قبرس إلا أنه يصاب بخيبةِ أملٍ كبيرة حينما علم أنَّ الخان قد عاد أدراجه مسرعاً إلى الشرق[٢]، مما جعله يعود هو الآخر إلى أوروبا للتنقل بين الفاتيكان وبلاطات حكام أوروبا داعياً لتبني مشاريعه الصليبية بوجهيها العسكري والتنصيري. وتارة

---

(١) انظر R.Brunschvig: Op.Cit., Tom 1, P.461-2, E.r. Danial: Op.Cit., P.68-9, I.N. Hillgarth: Op.Cit., P.48.

(٢) انظر A.S. Atiya: Op.cit, P.90, J.N. HHillgarth: Op.Cit., P.73-4.

أخرى يلقي المحاضرات في جامعتي باريس ومونبلييه أو يناظر بعض أساتذتهما، أو يلقي مواعظه في مراكز وفروع منظمتي الفرانسيسكان والدومنيكان، ويلهب حماس رهبانهما لمضاعفة جهودهم التنصيرية.

ومع أن جهوده هذه لم تؤد إلى النتيجة التي كان ينشدها، إلا أن ذلك لم يَفُتَّ في عَضُدِه، وبقي على تصميمه السابق في ضرورة تطوير ودعم حركة التنصير، لذلك، ما إن سمع بعقد مجمع فينا في سنة (١٣١١-١٣١٢م) حتى سارع إلى الرحيل إلى تلك المدينة وعرض مشاريعه على الحضور، وتمكن بمداخلاته واتصالاته المكثفة من تحقيق بعض النجاح والذي لم يكن بالقدر الكافي الذي كان يأمل فيه، إذ تَمَثَّلَ ذلك النجاح في استصدار قرار بإنشاء كرسي للدراسات الشرقية في كل من الجامعات الخمس المشهورة في أوروبا الغربية وقتئذ، وهي جامعات: روما، وشلمنقة، وبولونا، وباريس، وأوكسفورد، فكانت هذه الخطوة هي نواة حركة الاستشراق[١].

ولم يكتف رامون لول بما تقدم ذكره، بل رأى أن يذهب بنفسه إلى بلاد المسلمين كإسهامٍ منه في مساندة حركة التنصير بمجهود ميداني، فقام بثلاث زيارات لإفريقية، أولاها كانت إلى مدينة تونس في سنة ١٢٩٢م دامت بضعة أشهر وانتهت بطرده حينما علم المسلمون فيها بحقيقة هدفه، بعد أن كاد العوام يفتكون به[٢]، وكانت الثانية إلى بجاية في سنة ١٣٠٧م وانتهت هي الأخرى نهاية مخيبة لأمله، إذ ثارت ثائرة العامة عليه لتهجمه على الإسلام علناً، ولم ينقذه من الموت إلا تدخل السلطات في المدينة

(١) A.S. Atiya: Op.Cit., p.92, J.N. Hillgarth: Op.Cit., P.26.

(٢) A.S. Atiya: Op.Cit., P.90, R.Brunschviig: Op.cit., Tom 1, P.463, E.R. Danial: Op.Cit., P.70.

حيث ألقي القبض عليه وأودع السجن، ثم ونتيجة لتدخل التجار القطلان اكتفي بطرده أيضا[١]. وأما الثالثة والتي قام بها في أواخر سنة ١٣١٥م. فكانت فيها نهايته إذ مات رجماً في بجاية بعد أن استفزَّ مسلميها بما تَلفَّظَ به من عبارات أقل ما يقال فيها أنها كانت طعناً في الإسلام ونكراناً لصدق نبوة رسول الله ﷺ خاطبَ بها الناسَ بأعلى صوته من على درج المسجد الجامع بالمدينة، وهو يعلمُ نتيجةَ هذا التصرف الأخرق سلفاً، طلباً للشهادة في زعمه بعد أنْ كان قد جاوز الثمانين وتجرع مرارة الفشل مراراً حتى حطم الإحباطُ واليأسُ عزيمتَهُ، فرغب على ما يبدو في أنْ يُقتلَ بيد المسلمين شأنه في ذلك شأن مهووسي الشهادة الذين سبقت الإشارةُ إليهم، فكان له ما أراد، إذ لم يمهله المسلمون فانهالوا عليه رجماً حتى قتلوه[٢].

ولم يتوقف نشاط حركة التنصير في المغرب العربي بوفاة رامون لول، بل استمر قائماً طوال القرن الرابع عشر للميلاد، وبدا أكثر تنظيماً ويسير وفق خطط مدروسة، وتقوم بمساندته دولة كان لها مطامعها الكبرى في إفريقية بخاصة وفي المغرب العربي بعامة هي مملكة أرغونة، فضلاً عن مساندة البابوية والقائمين على الحركة الصليبية، ومما يؤكد ما ذهبنا إليه تلك المراسلات التي تبودلت بين البابوية وملوك أرغونة وملك صقلية ومنظمتي الفرانسيسكان والدومنيكان والسلطان الحفصي أبي زكريا بن اللحياني والتي أفصحت عن الجهود المكثفة التي بذلت في سبيل تنصير الأخير، ومع أن تلك الجهود باءت بالفشل، وطرد ابن اللحياني من عرشه

---

(١) د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج٢ ص١٢٣٩، A.S.Atiya: Op.Cit., P.91.

(٢) انظر د. سعيد عاشور الحركة الصليبية ج٢ ص١٢٣٩، A.S.Atiya: Op.Cit., P.94. R.Brunschvig: Op.Cit., Tom 1, P.464. J.N. Hillgarth: Op.Cit., P.133.

حيث انتهى به المطاف إلى الإقامة في الاسكندرية إلى أن توفي في سنة ١٣٢٨م[١]، إلا أن ذلك لم يقف حائلاً دون استمرارها بدعمٍ من ملوك أرغونة لحوالي ثلاثة عقود أخرى، حيث حاول الاستفادة من اضطراب الوضع السياسي في إفريقية لتحقيق أهدافهم، إلا أن فترة القوة التي كانت تمر بها دولة بني مرين آنذاك مما جعل منها القوة الكبرى في المغرب الإسلامي وقتئذ، ورغبة سلاطينها في أواسط ذلك القرن في توحيد هذا الجزء من العالم الإسلامي تحت زعامتهم للتصدي للعدوان الصليبي المستمر عليه أسوة بأسلافهم الموحدين، وما تلا ذلك من زحف السلطان أبي الحسن المريني على إفريقية ثم الزحف الثاني الذي قاده ابنه أبو عنان، وما واكب ذلك من حوادث كان من أهمها تفشي وباء الموت الأسود في ربوع المغرب، كُلُّ ذلك أفشلَ خططَ أرغونة في هذا الميدان.

فشل حركة التنصير في المغرب العربي في أواخر العصور الوسطى:

وعلى أية حال، لم يكن ذلك نهاية المطاف لحركة التنصير في المغرب وبالذات في إفريقية، يؤكد ذلك أن (أنسيلمو تورميدا Anselmo Tormeda) ذهب إلى إفريقية في سنة ١٣٨٨م ضمن بعثة تنصيرية فرانسيسكانية أرسلت لدعم المنصرين الفرانسيسكان الذين كانوا مستقرين فيها[٢]، والذي حينما وصل إلى مدينة تونس واتصل بمسلميها شرح الله صدره للإسلام فاعتنقه وتسمى بعبدالله في خبرٍ طويل لا مجالَ هنا

---

(١) عن هذا الموضوع انظر: Ch.E. Doufourcq: L' Espagne Catalane et La Magrib aux XIII at XIV Siecles, P.488.
R.Bronschvig: Op.Cit., Tom 1, P.467.

(٢) انظر R.Bronschvig: Op.Cit., Tom 1, P.470. كذلك د.محمد الطالبي: «الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين» ص٨٥.

لذكره[1]، وعاش في كنف سلطانها أبي العباس أحمد المستنصر الثاني الحفصي، ولأنه كان يجيدُ أكثرَ من لغةٍ بالإضافة إلى العربية تولى أعمال الترجمة للسلطان فلقب بالترجمان، فعرف منذئذٍ بعبدالله الترجمان، وبعد وفاة أبي العباس خدم ابنه وخليفته السلطان أبي فارس عبدالعزيز، وشغل عدة مناصب هامة في عهده، وبقي في خدمة الدولةِ الحفصية إلى أنْ أدركته منيته في حدود سنة ١٤٢٤م ولا زال قبره معروفاً بباب المنارة بمدينة تونس[2].

كان إسلام عبدالله الترجمان ضربة موجعة لحركة التنصير في إفريقية، فضلاً عن أن مؤشراً خطيراً ودليلاً هاماً على إفلاسها الفكري، ولذلك وفي محاولة منها لتدارك وضعها المتردي في المغرب العربي، بذلت جهوداً جبارة لرده إلى المسيحية، وقدمت له شتى الإغراءات، إلا أنها لم تفلح في سعيها، فقد بقي عبدالله الترجمان وفياً لدينه الجديد، وليس ذلك فحسب، وإنما أصبح سلاحاً خطيراً موجهاً ضدها، إذ عكف على خدمة هذا الدين بأسلوب جديد فعال هو تأليف عدد من الكتب دافع فيها عن الإسلام ونبوة محمد ﷺ مستنداً في ذلك إلى حجج وبراهين استنبطها من التوراة والإنجيل فقط، دَحَضَ فيها ما كانت تحتج به حركة التنصير مما جعل وَقْعها أشد عليها من المؤلفات التي كانت قد صنفت في هذا الموضوع، وقد أعانه على ذلك سعة اطلاعه على الديانة المسيحية وما تحتج به تجاه الأديان الأخرى لكونه قد أُعِدَّ أصلاً ليكون مُنَصِّراً، والتي كان أشهرها جميعا كتابه المسمى (تحفة الأريب في الرد على أهل

---

(١) انظر عن ذلك عبدالله الترجمان: «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب» ص٩-١٠.

(٢) انظر عبدالله الترجسان: المصدر السابق ص٢ وما بعدها.

الصليب) الذي اشتهر في إفريقية حتى طغى على اسمه فأصبح العوام يعرفونه بعد وفاته باسم (سيدي تحفه) بدلاً من عبدالله الترجمان.

وتقضي مشيئة الله سبحانه وتعالى أنْ تُصابَ حركةُ التنصير في هذا الميدان بنكسة أخرى في تلك الآونة، تمثلت في فشل الحملة الصليبية التي قادها لويس الثاني دي بوربون على المهدية في سنة ١٣٩٠م، والتي كان من أبرز أهدافها تنصير المسلمين ليس في إفريقية فحسب، وإنما في أقطار المغرب العربي الأخرى، الأمر الذي كان له بلا شك أثره السيء البالغ على النشاط التنصيري في تلك المنطقة، وبالتالي فإن جهود حركة التنصير فشلت في أواخر العصور الوسطى في ميدان المغرب العربي أيضاً، كما فشلت في ميدان المشرق من قبل، وليس ذلك فحسب، وإنما سجلت الحركة المضادة لها وأعني بذلك اعتناق المسيحيين الأوروبيين الذين كانوا يقيمون في أقطاره في تلك الآونة للدين الإسلامي، سجلت نجاحاً كبيراً، فقد أسلم العديد من هؤلاء والذين كانوا إما تجاراً أو جنوداً أو أسرى حروب أو حتى مُنَصِّرين كعبدالله الترجمان، واندمجوا في المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها تربطهم أوثقُ الروابطِ مع إخوانهم الجدد.

مصير المسلمين في ظل الاحتلال المسيحي:

وبناء على ما تقدم، فإن ما حققته حركة التنصير من نجاح مع المسلمين في ذلك العصر اقتصر في غالبيته العظمى على تمكنها من تنصير قسم من هؤلاء المسلمين الذين أقاموا تحت الاحتلال المسيحي في كل من الأندلس وصقلية وباقي جزر البحر المتوسط الإسلامية بعد الاستيلاء على بلادهم ولم تُسعفهم الظروفُ للهجرة إلى العدوة المغربية، فقد أُجبر هؤلاء على التنصر بعد مقاومة باسلة امتدت قروناً، كانوا خلالها يتعرضون لأبشع أنواع القهر والتعذيب لمجرد الشبهة بأنهم مسلمون. فأما بالنسبة لمسلمي صقلية،

فبالرغم مما يشيعه البعضُ عن تسامح ملوك النورمان من أسرة (هوتفيل) وخلفائهم في حكم تلك الجزيرة وتوابعها من أباطرة أسرة (هوهنشتاوفن) معهم، إلا أن الدلائل التاريخية تَدحضُ هذا التسامحَ المزعوم. وخيرُ دليلٍ على ذلك، ما يقوله ابنُ جبير في «رحلته» عن جو القهر والاضطهاد الذي كان يعيش فيه مسلمو صقلية تحت حكم ملوك النورمان، إذ يذكر أنه اجتمع بأحد رؤسائهم واسمه عبدالمسيح، فعلم منه أنه مسلم في السر ولا يقدر على المجاهرة بإسلامه خوفاً من البطش، وينقل على لسانه: (ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، ومتمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سراً، معتقلون في ملكة كافر بالله، وقد وضع في أعناقنا ربقة الرق)(١)، وينقل صوراً أخرى مشابهة شاهدها عياناً أو قيلت له كلها تؤكد أن هذا التسامحَ كان محضَ افتراء(٢)، ولولا الحاجة إليهم في إدارة الدولة ورقي البلاد لكفاءتهم وخبراتهم المتعددة الجوانب التي اكتسبوها من حضارتهم العربية الإسلامية، لقضى النورمان عليهم منذ الأيام الأولى للاحتلال، وعلى أية حال، فقد آل أمر معظمهم أخيراً إلى القتل في مجازر مروعة دُبِّرتْ لهم مثل مذبحة (بلرمو) التي راح ضحيتها عشرات الآلاف منهم(٣). واستمرت سياسة التربص بهم وانتهاز أي فرصة تَسنحُ للفتكِ بمن لم يتنصر منهم في عهد حكام أسرة هوهنشتاوفن، ولعلَّ خيرَ دليلٍ على ذلك تلك المذبحةُ التي ارتكبها فيهم جند الامبراطور فردريك الثاني بعد القضاء على

---

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص٢٩٩ وما بعدها.

(٢) ابن جبير: المصدر السابق ص٣١٣ وما بعدها.

(٣) انظر عن هذه المذبحة د.حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس - الشريف الإدريسي، قمة علم الجغرافية عند المسلمين ص٢٨٤ وما بعدها، كذلك د.مارتينو مارينو: المسلمون في صقلية ص٢١، K.M. Setton: A HHHistory of the Grosades, Vol.2, P.32. N.Danial: Op.Cit., P.149-150.

ثورة ابن عباد[1]، والتي قتل فيها الآلاف منهم، مما اضطر قسماً منهم للهجرة إلى إفريقية، في حين تنصر الباقون وذابوا تدريجياً في المجتمع الصقلي. وواجه مسلمو باقي جزر غرب البحر المتوسط التي احتلها الأوروبيون كالجزائر الشرقية (جزر البليار)، وسردينيا، وكورسيكا، وقوصره (بنطلاريا)، ومالطة، فضلاً عن مسلمي الولايات الإسلامية في جنوب إيطاليا وبروفانس في جنوب فرنسا مِثْلَ هذا الاضطهاد ونفس هذا المصير.

ولم يكن وضع مسلمي الأندلس تحت الاحتلال الإسباني بأفضل من ذلك، فقد تَفنَّنت السلطاتُ المحتلة في ابتكار أساليب اضطهادهم وتعذيبهم، وما كانت دواوين التحقيق (محاكم التفتيش) التي أُقيمت خصيصاً لملاحقتهم إلا أحد هذه الأساليب، مع أن المعاهدات التي كانت تعقد بين المسلمين والممالك الإسبانية في الحرب التي سميت بحرب الاسترداد، كانت كلها تتضمن شرطاً موحداً يتكرر في كل منها مفاده ضمان تمتع المسلمين الذين يبقون في بلادهم تحت الاحتلال

---

(١) نشبت هذه الثورة في سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م بسبب ما كان يعانيه مسلمو صقلية من اضطهاد، وظلت مشتعلة لمدة تزيد عن السبعين عاماً، وبالرغم من طول هذه المدة، إلا أن المعلومات التي وصلتنا عنها قليلة تتمثل في إشارات عابرة في بعض المصادر التاريخية، فقد أشار إليها ابن عذاري (البيان المغرب ج٣ ص٢٣٤) في حوادث سنة ٦٠٧هـ، وقد ازدادت حدتها عندما انشغل الامبراطور فردريك الثاني عن صقلية بمشاكله البابوية ومع المدن اللمباردية فضلاً عن ألمانيا، ولكنه حينما فرغ من تسوية تلك المشاكل وَجَّه اهتمامه لهذه الثورة فقمعها بكل قسوة وعنف وشنق قائدها الذي كان وقتئذ هو ابن عباد، ونفى معظم مَنْ نجا من القتل من الثوار إلى مدينة لوجاره (Lucera).
(انظر د. مارتينو مارينو: المرجع السابق ص٣٥).

بحريتهم الدينية، وخيرُ دليلٍ على ذلك معاهدة تسليم غرناطة للملكين الكاثوليكيين فردناند وإيزابلا[1]، إلا أن هذا الشرط سرعان ما يُغفل ويُنسى أمرهُ بمجرد تَمكُّنِ النصارى من المدينة أو الإقليم المحتل وإحكام سيطرتهم عليه، حيث تبدأ حينذاك ملاحقتهم لإجبارهم على التنصر بحجة إنقاذهم من الضلال!!! وخلاص أرواحهم!!! بوصفهم وثنيين!!! في نظر الكنيسة والسلطات الحاكمة[2]، حتى اضطروا تحت شدة وطأة هذا الإرهاب الذي لم يعرف له مثيل في التاريخ إلى إظهار التنصر وكتمان إسلامهم حتى عن أقرب الناس إليهم[3]، كما ابتكروا كتابة خاصة بهم كانوا يكتبون بها الكتب الفقهية اللازمة لإقامة شعائرهم الدينية، وكانت هذه الكتب تُخفى في جدران منازلهم بعناية بالغة، ولا تخرج من هذه المخابىء إلا عند الحاجة الماسة، ولا زالت أعمال هدم المباني والترميم في مدن إسبانيا التي كانت مدناً إسلامية بخاصة غرناطة تكشفُ عن مِثْلِ هذه الكتب حتى عصرنا الحاضر.

وكان الخوفُ من بطش السلطات يفرض على رب الأسرة تَوَخِّي أقصى

---

(١) عن هذه المعاهدة انظر: المقري: «نفح الطيب»، ج٤ ص٥٢٥، محمد عبدالله عنان: «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين»، ص٢٥٠ وما بعدها، لوثروب ستودارد: «حاضر العالم الإسلامي» ج٢ ص٤، د.عبدالرحمن علي الحجي: «التاريخ الأندلسي» ص٥٥٣، د.علي محمد حموده: «تاريخ الأندلس»، ص٢٩٩ وما بعدها.

(٢) انظر عن نقض شرط كفالة الحرية الدينية للمسلمين في معاهدة تسليم غرناطة للملكين الكاثوليكيين د.سعيد عاشور: «أوروبا العصور الوسطى» ج١١ ص٥٥٧.

(٣) انظر عن ذلك: المقري: المصدر السابق ج٤ ص٥٢٥، محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص٢٥٠، د.عبدالرحمن علي الحجي: المرجع السابق ص٥٦٨ وما بعدها، د.علي محمد حموده: المرجع السابق ص٣٠٠ وما بعدها.

درجات الحذر في تعليم أسرته مبادىء الإسلام حتى لا يُعَرِّضَها بأكملها للموتِ حرقاً إذا ما اكتُشِفَ أمرهُ. وزاد الطين بلة بالنسبة لهم أنه حيل بينهم وبين الهجرة إلى العدوة المغربية لأسباب عديدة أهمها الخوف من أن يقوم هؤلاء بتجميع قواهم في تلك العدوة ومن ثَمَّ يعودون للهجوم على الأندلس من جديد بدعم ومساندة إخوانهم عرب العدوة، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، أن السلطات الحاكمة لم تشأ التفريطَ في هذه الكفاءات النادرة التي كانت في أمسِّ الحاجة إليها لإدارة البلاد وتطويرها، تماماً كما حدث بالنسبة لمسلمي صقلية، وحيالَ اشتدادِ هذا الضغط عليهم أخذوا يطلقون صرخاتِ الاستغاثة إلى إخوانهم في العدوة والمشرق، فاستجاب لهم السلطان العثماني الذي مارس قدراً من الضغط على البابوية وحكومة إسبانيا، تَمكَّنَ به من تخفيف بعض القيود المفروضة عليهم، وعلى أية حال، فقد آل أمرُ مَنْ لم يتمكن من الهرب منهم إلى التنصر أخيراً بعد هذه المقاومة الباسلة التي استمرت مدة طويلة.

تسامح الحكومات الإسلامية مع المسيحيين:

وفي مقابل هذا الإرهاب والاضطهاد الذي مارسته أوروبا الغربية ضد المسلمين في هذه الأقطار، لم يجد من أقام من شعوبها في كنف المسلمين منذ حركة الفتوحات إلا كُلَّ تسامحٍ ورعاية، وجرى نفس الأمر بالنسبة لمسيحيي المشرق على اختلاف مذاهبهم إذ كانوا يتمتعون أيضاً بكامل حريتهم الدينية في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً في عهود مختلف الدول التي انتصبت في أرجائه، يشهد بذلك تلك الرسالة التي بعث بها ثيودسيوس بطريرك بيت المقدس في سنة ٨٠٩م إلى زميله اجناتيوس بطريرك القسطنطينية والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على تسامحهم المطلق والتي سبقت الإشارة إليها، فكانوا يعيشون في ظلِّ تسامحٍ لم يتوفر

لهم مثله تحت حكمٍ آخر حتى ولا في البلاد المسيحية إذا كان مذهبهم يخالف مذهب الحكم القائم فيها منذ انتشار المسيحية وحتى العصر الحديث، ولعل في ما حدث في أوروبا الغربية من حروب دينية في مطلع العصور الحديثة ما يكفي للدلالة على صحة هذا القول، فالتسامحُ مع المخالفين في العقيدة أمرٌ لم يعرفه الأوروبيون طوال تاريخهم، وهم إن أظهروه أحياناً في عصرنا الحاضر، إنما يكون زائفاً، لا يستطيع إخفاء تعصبهم الشديد بل يظهر هذا التعصب عند أول محك أو اختبار. وعلى ذلك فإن التسامح كان مقصوراً في تلك الأزمنة على المسلمين، ولا عجب في ذلك، فهو أحد المبادىء السامية لدينهم.

فتور نشاط حركة التنصير حتى مطلع العصر الحديث:

وهكذا نخلص من هذا العرض الموجز إلى نتيجة هامة هي أن نشاط حركة التنصير في بلاد المسلمين ظل مستمراً طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر بالرغم من الآثار السلبية التي تركتها الحوادث التي جرت في أوروبا الغربية وقتئذٍ على هذه الحركة مثل اشتباك انجلترا وفرنسا في حرب المائة عام، والضعف الذي أصاب البابوية حتى انتهى بها الأمر إلى نقل مقرها من روما إلى أفينون بفرنسا، لتبدأ فترة من تاريخها أصبحت فيها رهينةَ رغبةِ ملوكِ فرنسا بعد أنْ كانت هي التي تفرض رغبتها على الملوك والأباطرة، تلك الفترة التي عُرفت بالأسر البابلي (سنة ١٣٠٥م-١٣٧٨م)[1]، وما تلا ذلك من حادث مؤلم آخر كان أشد نكاية عليها من الأول، هو الانشقاق الديني الكبير سنة (١٣٧٨م-١٤١٧م)[2]، الذي كان في حقيقة

---

(١) عن هذا الموضوع انظر د.سعيد عاشور: «أوروبا العصور الوسطى» ج١ ص٤٩٧ وما بعدها.

(٢) للمزيد انظر د.سعيد عاشور: «أوروبا العصور الوسطى» ج١ ص٥٠١ وما بعدها.

أمره كارثة عليها، وبذلك فقدت الحركة الصليبية زعامتها الروحية، ثم تفسخ الامبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت هي الأخرى ظهيراً قوياً لهذه الحركة، وما واكبه من انصراف منظمة الفرسان التيوتون الألمانية التي عُرفت بنشاطها الصليبي بوجهيه العسكري والسلمي عن ميدان العالم الإسلامي إلى جهة أخرى هي أوروبا الشرقية حيث انشغلت بتنصير البروسيين، ثم انتشار الوباء الرهيب الذي عُرف بالموت الأسود في أواسط القرن الرابع عشر والذي ترك في أوروبا آثاراً سياسية واقتصادية واجتماعية عميقة دامت مدة طويلة.

لذلك، كان لا بد لهذه الحوادث من أن تترك آثاراً سلبية على هذا النشاط فتؤدي إلى فتوره، وخلال فترة التراجع هذه التي دامت حتى مطلع العصور الحديثة، لم يخل الأمر من جهود تنصيرية كان رهبان منظمتي الفرانسيسكان والدومنيكان هم الذين تبوأوا مركز الصدارة فيها، ثم انضم إليهم رهبان منظمة الآباء اليسوعيين (الجزويت) فيما بعد، هذه المنظمة التي وإنْ كانت قد تأخرت عن سابقتيها زمنياً في التأسيس، إلا أنها لم تكن تقل عنهما حماساً، بل إنها قد تكون فاقتهما نشاطاً في ميدان التنصير.

وما تجدر الإشارة إليه، هو أن هذا النشاط في جميع المراحل كان يزداد إلى حد كبير في مختلف بلاد المسلمين في ظل الأزمات السياسية والاقتصادية والكوارث الطبيعية على أمل الاستفادة من هذه الظروف، فإذا خَيَّمت أيةُ أزمةٍ على قطر منها، أي إذا اضطرب الوضع السياسي فيه أو حَلَّ به القحطُ والمجاعة، بدأتْ جموعُ المُنَصِّرين تتوافدُ إليه، حيث ينشطون في تقديم مختلف أنواع الخدمات إلى أهله، محاولين جعل تلك الخدمات أشبه بطعم لاصطيادهم وجذبهم للمسيحية، وهي نفس الأساليب التي تتبعها هذه الحركةُ في عصرنا الحاضر بالنسبة لمسلمي بعض أقطار

إفريقيا وآسيا مع قليلٍ من التحوير والتنويع فيها، فالجوهرُ واحد ولكنه غُلّفَ حالياً بما تقتضيه مجريات العصر وظروفه. ولعل هذا هو السبب الذي يجعلنا نلاحظ هذا النشاط في إفريقية مثلاً بوضوح في عهد الدولة الحفصية منذ أنْ أظلّها عهدُ الفوضى والاضطراب الذي أعقب وفاة المستنصر الأول في سنة ١٢٧٦م ودام لحين اعتلاء المستنصر الثاني العرش أي إلى ما يقارب القرن كما سبقت الإشارة إليه، ولا نلمحه بهذا القدر من الوضوح في قطر آخر ينعم بالاستقرار.

حركة التنصير والكشوفات الجغرافية:

وجدت حركة التنصير في الكشوفات الجغرافية التي بدأت منذ أواخر القرن الخامس عشر فرصة طيبة لها لتعويضها عما مُنيت به من فشلٍ في بلاد المسلمين، فألقت بثقلها في هذا الميدان، حيث باشرت في تنصير سكان الدنيا الجديدة الأصليين. وانفردت بهؤلاء المساكين لعدم وجود المنافس لها حتى تمكنت من تنصيرهم بالقوة مرتكبةً في ذلك أبشع الجرائم التي لم يَعُدْ أمرها لِيَخْفَى على أحد، وبذلك أحرزت في العالم الجديد النجاحَ الذي كانت تصبو لتحقيق مثله في العالم القديم، وبالرغم من هذا النجاح، فإنها لم توقف نشاطها في العالم القديم، فقد تمكنت في ظل هذه الكشوفات من الوصولِ إلى مواضع جديدة في آسيا وإفريقية، فقد وصل إلى الهند مع البرتغاليين العديدُ من المنصرين الجزويت وأخذوا يمارسون نشاطهم إلى حد أنهم وصلوا إلى بلاطِ أباطرةِ المغول المسلمين الذين كانت دولتهم تبسط نفوذها على منطقةٍ واسعة من شمال شبه الجزيرة الهندية، وتذكر الوثائق التاريخية أن ثلاثةً من هؤلاء حضروا كممثلين للمسيحية في ذلك اللقاء الذي عقده الامبراطور (أكبر) في سنة ١٥٧٤م بين ممثلين لمختلف الأديان في امبراطوريته في محاولة منه للتوفيق

بينها هم (رودلفو أكوارفا Rodelfo Aquarva)، و(أنطونيو موتزارت Antono Mouserrate)، و(هنري جيز Henry - Quez). كان الأول والثاني من الجزويت الأوروبيين، أما الثالث فكان مسلماً فارسياً ارتد عن الإسلام وشهر سلاح التنصير على المسلمين في الهند بالتعاون مع البرتغاليين[١].

والغريب في الأمر، أن هذا اللقاء جعل هؤلاء الجزويت يتوهمون - تماماً كما توهم مَنْ سبَقهم من المنصرين مع حكام مسلمين آخرين وكما تقدم ذكره - أن الامبراطور أكبر حينما أحاطهم برعايته واستمع بإمعانٍ إلى أحاديثهم عن الديانة المسيحية قد مال إلى معتقدهم وأنه على وشك قبول التنصر، وأنه لو تم ذلك لكان حدثاً خطيراً في تاريخ المسيحية لا يقل عن اعتراف الامبراطور قسطنطين الأول بهذه الديانة الذي أعقبه انتشارها بسرعة في الامبراطورية الرومانية[٢]، ولكن خاب ظنهم، وبقي هذا الامبراطور متمسكاً بعقيدته، ومع ذلك استمرت جهودُ هؤلاء المنصرين في القارة الهندية وتمكنوا في ظل السلطات الاستعمارية التي حكمت هذه البلاد فيما بعد من اجتذابِ بعض الوثنيين إلى الديانة المسيحية والذين كانوا قِلَّةً إذا ما قُورنوا بعددِ سكانها الآخرين الذين ظلوا على دياناتهم السابقة من مسلمين وغيرهم، وقد تعرض (أودين بلس) في الفصل الرابع من كتابه المسمى (مشروع التبشير) إلى نشاط حركة التنصير في جاوه وسيلان والهند في القرن الثامن عشر بإسهاب.

---

(١) انظر عبدالعزيز نوار: الشعوب الإسلامية ص٥٢٣ حاشية ١.

(٢) د.عبدالعزيز نوار: المرجع السابق ص٥٢٣ وما بعدها.

العثمانيون وحركة التنصير في مطلع العصر الحديث:

وكانت تبذل في الشرق الأوسط جهود تنصيرية مماثلة في نفس الوقت تقريباً في إطار الاتصالات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية القوة الإسلامية الكبرى في المنطقة وقتئذٍ من جهة، والدول الأوروبية من جهة ثانية، وقد بدأ هذه السياسة (فرانسوا الأول) ملك فرنسا في اتفاقية سنة ١٥٣٥م مع الباب العالي، والتي انطلاقاً من مبادئها أخذ الرهبان الجزويت الفرنسيون يتوافدون إلى مختلف أقاليم الدولة العثمانية، وقد استقر بعضهم في استانبول اعتباراً من سنة ١٥٨٣م أو ربما قبلها. وكانت المهمة المعلنة لهؤلاء هي تقديم الخدمات والرعاية لأبناء الجاليات المسيحية المستقرة في تلك الأقاليم، وأما الهدف الحقيقي لهم فكان هو تنصير المسلمين، هذا الهدف الذي لم يكونوا يجاهرون بالإفصاح عنه إلا إذا واتتهم الفرصةُ خوفاً من إثارة الرأي العام الإسلامي عليهم فضلاً عن السلطات.

وحينما بدأ الضعف يسري في جسد الدولة العثمانية، كان ذلك فرصة ثمينة لحركة التنصير عملت على الاستفادة منها بكل قواها في ظل تدخل الدول الأوروبية في شئونها وفي ظل الامتيازات الأجنبية، يؤكد ذلك ما قاله الأب اليسوعي ميبز حينما أجملَ سياسةَ فرنسا الدينية في الشرق: (إن الحربَ الصليبيةَ الهادئة التي بدأها مبشرونا في القرن السابع عشر، لا تزال مستمرة إلى أيامنا. إنَّ الرهبان الفرنسيين والراهبات الفرنسيات لا يزالون كثيرين في الشرق. ولقد احتفظت فرنسا طويلاً بروح الحروب الصليبية، وبالحنين إلى تلك الحروب حيةً في نفسها - وكثيراً ما فكر ملوكها بحملة صليبية جديدة على الشرق - ولكن أوروبا المنشقة على نفسها، كانت دائماً تجعل من المستحيل على فرنسا أن تقوم بحملة بعيدة المدى، وكان من

غايات الامتيازات الأجنبية دائماً، أن تحتفظ فرنسا بالدور الذي يلعبه رهبانها وأنْ تُوسِّعَ ذلك الدورَ، وقد اعتُرِفَ لقناصلنا وسفرائنا بالحماية للنصارى، تلك المهمةُ الصعبة التي لم تخلع عليهم إلا شرفَ حضور القداديس في الكنائس - ولقد كانوا يبذلون جهداً كبيراً ليهدئوا من ارتجاف المسلمين المتعصبين، وليحموا أعمال المبشرين في الامبراطورية العثمانية - وكان ممثلو فرنسا يساندون أعمالَ مُبَشِّرينا. وكان لفرنسا في أكثر الأحيان قُصَّاداً رسوليين في أشخاص قناصلها، وخصوصاً في القرن السابع عشر، وكثيراً ما اختارت قناصلها وسفراءها من رجال الدين)[١].

وليس بالأمر اليسير تتبع نشاط هؤلاء المنصرين في أنحاء هذه الدولة، نظراً لأنهم كانوا ينتمون إلى هيئات مختلفة ويتبعون دولاً استعمارية عديدة، كُلٌّ منها كانت تعمل جاهدة بشتى السبل ومن ضمنها نشاط هؤلاء لنيل نصيبها من تركة الرجل المريض (الدولة العثمانية)[٢]، ونكتفي هنا بذكر مثال واحد على ذلك هو نشاط (جان لو فاشي Jean Le Vacher) الذي يعتبر أشهر المنصرين الذين أرسلوا إلى المغرب العربي في القرن السابع عشر، فقد قام بدور خطير في سبيل مواصلة النشاط التنصيري في تلك المنطقة وقتئذٍ، حيث أقام في تونس أولاً خلال الفترة من سنة ١٦٥٠م إلى سنة ١٦٦٨م يعمل بجد ونشاط جم وحماس لا حدودَ له في سبيل تدعيم جهود حركة التنصير في ذلك القطر، ثم انتقل إلى الجزائر

---

(١) محمد عزت إسماعيل الطهطاوي: «التبشير والاستشراق أحقاد وحملات على النبي ﷺ وبلاد الإسلام»، ص٢٠-٢١.

(٢) يمكن للراغب في الزيادة عن هذا الموضوع الرجوع إلىمحمد عزت إسماعيل الطهطاوي: المرجع السابق، أ.ل شاتليه: «الغارة على العالم الإسلامي»، تلخيص وترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، د.مصطفى الخالدي، د.عمر فروخ: «التبشير والاستعمار في البلاد العربية».

لنفس الغرض[1]، وكان لجهوده هذه أثرها الفعال في سبيل استمرار النشاط التنصيري في كلا القطرين، فضلاً عن أنه مَهَّدَ للوثبة الكبرى لهذا النشاط في ظل الاستعمار الفرنسي فيهما فيما بعد.

حركة التنصير في ظل الاستعمار:

وما كادت مرحلة الكشوفات الجغرافية تنتهي، حتى أطلَّ عصرُ الاستعمار الأوروبي، وفي ظل هذا الاستعمار الذي عانى قسم كبير من العالم الإسلامي من ربقته، دخلت حركةُ التنصير في طور جديد من أطوار حياتها، والذي من أبرز معالمه تلك العلاقة الوطيدة والحميمة بينها وبين الاستعمار وتعاونهما الكبير في سبيل تحقيق أهدافها في الدنيا الجديدة من ناحية ثانية. ولذلك، لقيت السياسةُ الاستعماريةُ من حركة التنصير بخاصة ومن الكنيسةِ بوجهٍ عام كُلَّ دعمٍ ومساندة. وقد استعملت الكنيسة في تبريرها لمناصرتها للسياسة الاستعمارية ذلك الأساس النظري الذي استند إليه مفكروها في إثبات حق الاستعمار وربطه بحق التنصير والذي شرحه العالم الديني الإسباني (فرانسوا دو فيتوريا Francois de Vittoria) بما مُلَخَّصُه أنَّ الله خلق العالم لجميع الناس، ولذلك، لا يستطيع أي شخص أنْ يضعَ العراقيلَ أمامَ وصولِ أيٍّ من البشر إلى ثرواتِ هذا العالم حيثما كانت، وبما أن الإنجيل يأمر قائلاً: «اذهبوا وعَلِّموا جميع الأمم»، فلا يمكن لأيِّ شخص أيضاً أن يعرقل الدعوة للديانة المسيحية»[2].

وبناء على ذلك، فقد أصبح حق التنصير وحق الاستعمار والاستيلاء على ثروات الشعوب حقاً واحداً، وهو بالتالي حق استعمال العنف ضد

---

(١) انظر د. الحبيب الجنحاني: «من قضايا الفكر» ص١٣٢.
(٢) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٣٣.

كل شعب يدافع عن أرضه وثرواته وعقيدته. وتبعاً لذلك، مشى المنصرون في ركاب الاستعمار أينما سار، أو كانوا يزحفون قبله لتمهيدِ الطريق له، وأصبح المنصر أحد الدعائم الثلاث التي قام عليها هذا الاستعمار بالإضافة إلى الجندي والمعمر، وبالمقابل تلقت حركة التنصير الدعم القوي والتشجيع المختلف الأشكال من الحكومات الاستعمارية لجهودها في تثبيت أركان الاستعمار وترسيخه وتعميق جذوره، فأقامت لها مراكز التنصير (الإرساليات) في مختلف أنحاء البلاد التي استعمرتها وأسبغت عليها الحماية ومنحتها شتى أنواع المساعدات، مما جعل نشاطاتها تتسع وتتشعب خاصة أن هذه الحركة رأت في هذا العصر ضرورة الاستفادة من تجاربها السابقة في بلاد المسلمين، وللحيلولة دون إثارتهم وما كان يَجُرُّه ذلك عليها من متاعب، ركَّزت جهودها في ميدانين رئيسيين، أولهما، الأعمالُ الخيرية والخدمات الاجتماعية من إنشاء المستشفيات، وملاجىء الأيتام والعجزة ودور التأهيل وانطلاقاً من ذلك ارتفع شعارُ (الطب في خدمة التنصير)، والذي طَبَّقته الجمعياتُ التنصيرية منذ وقت مبكر، وأكَّدت عليه في العديد من مؤتمراتها فضلاً عن أقوال العديد من المنصرين التي كانت ترد في خطبهم أو مقالاتهم التي كانت تنشرها المجلات التنصيرية أو مؤلفاتهم.

من ذلك، أن المنصِّرين ركَّزوا على هذا الموضوع في مؤتمرهم الذي عقدوه في القدس في سنة ١٩٢٤م وما تلاه من المؤتمرات التي عقدت في استانبول وحلوان بمصر ولبنان وبغداد، حيث بَيَّنُوا خلالها بوضوح أنَّ التطبيب وسيلةٌ الى التبشير، (ولا أدَلَّ على ذلك من أنَّ اليسوعيين - الجزويت - في سوريا أسسوا أكثر أعمالهم التبشيرية إلى جانب مراكز التطبيب، وبعضها بدأ مركزاً للتطبيب، ثم أفصح عن وجهه في النهاية على أنه مركز تبشير، وقَلَّتْ أعمالُ التطبيب، حتى أصبح في النهاية لا

يعملُ إلا للتبشير المحض)[1]. وحدث مثل ذلك في بلدة الناصر في السودان، حيث كان الأطباء المُنَصِّرونَ لا يعالجون المريض إلا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو المسيح، وكانت المعالجة في الحبشة لا تبدأ إلا بعد أن يركع المريض ويسأل المسيح أن يشفيه، وفي ذلك يقول الطبيب الأمريكي المنصر (بول هاريسون) في كتابه (الطبيب في بلاد العرب): (إن المبشر يرضى عن إنشاء مستشفى ولو بلغت منافع ذلك المستشفى منطقة عمان بأسرها، لقد وُجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى)[2]، ويقول (س. أ. موريسون): (نحن متفقون بلا ريب على أن الغاية الأساسية في أعمال التنصير، بين المرضى في المستشفيات، أن نأتي بهم إلى المعرفة المنقذة بمعرفة ربنا يسوع المسيح، وأن ندخلهم أعضاء عاملين في الكنيسة المسيحية...)[3]، وأما (إيد هاريس) فتقول في نصحها للأطباء: (يجب على الطبيب أن ينتهز الفرص، ليصل الى آذان المسلمين وقلوبهم، فعليك أيها الطبيب أن تكرز لهم بالإنجيل، إياك أن تضيّع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات، فإنه أثمن تلك الفرص على الإطلاق، ولعل الشيطان يريد أن يفتنك، فيقول لك: إن واجبك التطبيب فقط لا التبشير فلا تسمع منه)[4]. وأما الدكتور (أراهارس) طبيب إرسالية التنصير في طرابلس الشام فيقول في خطاب ألقاه في مؤتمر القاهرة التنصيري الذي عقد في سنة ١٩٠٦م: (يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينسى ولا في لحظة واحدة أنه مبشرٌ قبلَ كل

---

(١) محمد عزت إسماعيل الطهطاوي: المرجع السابق ص٨.

(٢) محمد عزت إسماعيل الطهطاوي: المرجع السابق ص٩.

(٣) محمد عزت اسماعيل الطهطاوي: المرجع السابق ص٩.

(٤) محمد عزت اسماعيل الطهطاوي: المرجع السابق ص٩-١٠.

شيء ثم هو طبيب بعد ذلك)[1].

وأما ثاني هذين الميدانين فهو الهيمنة على التعليم وما يرتبط به من إنشاء المدارس والكليات والجامعات والمعاهد العليا وتزويدها بما يلزمها من مدرسين ووسائل تعليمية حديثة وإنشاء المطابع لتعميم المؤلفات التي يُصَنِّفُها مفكِّرو حركةِ التنصير على طالبي العلم والطبقة المثقفة في البلد الذي تستهدفه تلك الحركة فضلاً عن طبع ما يختاره القائمون عليها من كتبٍ تراثية بعد تناولها بما يتفق مع مخططاتها واتجاهاتها من الدَّسِّ فيها بالزيادة والحذف والتحوير والتعليق المضلل. ومن أول وأهم ما يذكر في هذا المجال، هو جهود البارون (دوتيز) الذي عمل على تحريك ضمائر النصارى في سنة ١٦٦٤م لتأسيس كلية لتعليم المُنَصِّرين أُسسَ وأساليبَ التنصير والتي يأتي في مقدمتها تعليمهم اللغات الشرقية ليسهل عليهم التعامل والتفاهم مع الشرقيين، الأمر الذي دفع أحد رجالات الكنيسة لتوزيع ميادين العمل على هؤلاء المنصرين فرأى (أن يُعهد إلى الأروام بمسئولية تبشير الأتراك)[2]. الأمر الذي يُذَكِّرُ بما قام به رامون لول حينما أنشأ كلية ميرامار للغرض ذاته.

ومع أن مشروع دوتيز هذا قد فشل كما فشلت قبله كلية ميرامار، إلا أن ذلك حفز حركة التنصير على تحوير الفكرة، وجعلها تقوم على تأسيس مدارس وكليات وجامعات في الشرق وبخاصة في بلاد المسلمين لاجتذاب طلاب العلم الشرقيين إليها في محاولة منها لتنصيرهم، لذلك، نشطت في إنشائها وبخاصة في أراضي الدولة العثمانية، وزودتها بمدرسين كانت

---

(١) انظر أ.ل. شاتليه: «الغارة على العالم الإسلامي»، تلخيص وترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي ص٢٥.

(٢) أ.ل. شاتليه: المرجع السابق ص١٤.

غالبيتهم العظمى من المنصرين الذين مرنوا أساليب التنصير إلى جانب كفاءتهم العلمية، ووضعت لها المناهج التعليمية التي تتفق مع سياستها واتجاهاتها. ولم يفت القائمين على هذه الحركة إنشاء كنيسة بجانب كل منها، وتأسيس بعضها بالقرب من المراكز الإسلامية العريقة، فأنشأوا الجامعة الأمريكية في القاهرة مثلاً لتكون قريبة من جامعة الأزهر العتيدة، ومثلها الجامعة الأمريكية في بيروت النافذة الرئيسية لبلاد الشام على أوروبا والقريبة من دمشق حاضرة العلم والثقافة العربية الإسلامية في تلك البلاد من ناحية، والقريبة من القدس الحاضرة الثانية فيها فضلاً عن مكانتها الدينية السامية بوصفها تضم المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين من ناحية ثانية، ومثل ذلك معهد روبرت والجامعة الأمريكية في اسطنبول حاضرة الدولة العثمانية.

ولم يقتصر تخصيص هذه المعاهد التعليمية على تعليم الذكور، وإنما تَعدَّاهُ للعمل على تعليم الإناث، وبخاصة المدارس الدينية، لما لهن من دور هام في المجتمع، فقد طلب المنصرون الأمريكيون في سنة ١٨٧٠م مبلغ ٣٠ ألف دولار لإنشاء مدرسة دينية للبنات في بيروت، وعَلَّلُوا طلبهم هذا بقيمة المرأة في الحياة البيتية، وأن تلك المدرسة ستساعد في تنصير سوريا بأكملها في المستقبل على حَدِّ زعمهم[(١)].

وكان المدرسون الذين يعملون في تلك المعاهد يُكَلَّفُون بأنْ يُقسموا يميناً بأن يُوجِّهُوا جميعَ أعمالهم نحو هدف واحد هو التنصير، الأمر الذي جعل هؤلاء لا يألون جهداً في تذكير الطلاب بالمبادىء المسيحية وتحبيبها إليهم حتى في الدروس التي لا صلة لها بالدين تنفيذاً لذلك القسم من ناحية، وتطبيقاً لما قرره مؤتمر القدس التنصيري المنعقد في سنة ١٩٣٥م

(١) محمد عزت إسماعيل الطهطاوي: المرجع السابق ص١٢.

بأن يُستغلَّ كلُّ درسٍ في سبيل تأويل مسيحي لفروع العلوم كالتاريخ وعلم النبات وغيرها حتى درس اللغة الإنجليزية كان يستغل في ترجمة أجزاء من التوراة إلى اللغة العربية.

وعندما احتج الطلبة على إجبارهم على الدخول إلى الكنيسة في الجامعة الأمريكية ببيروت، أصدرت تلك الجامعة منشوراً جاء فيه: (إن هذه كلية مسيحية، أُسِّستْ بأموالِ شعبٍ مسيحي، هم اشتروا الأرض، وهم أقاموا الأبنية، وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء، وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكونُ الإنجيلُ من مواده. فتفرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ. وهكذا نجد أنفسنا ملزمين، بأن نفرض الحقيقة على كل تلميذ، وأن كل طالب يدخل إلى مؤسستنا، يجب أن يعرف ماذا يطلب منه)(١)، وقد أعلن مجلس الأمناء في تلك الجامعة أن الجامعة المذكورة لم تؤسس للتعليم العلماني، ولا لبثِّ الأخلاق الحميدة، ولكن من أولى غاياتها، أن تعلم الحقائق الكبرى في التوراة، وأن تكون مركزاً للنور المسيحي!!!، وللتأثير المسيحي، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به(٢).

وأما مدارس اليسوعيين (الجزويت)، التي تُوجَّهُ توجيهاً دينياً من روما، وسياسياً من فرنسا، والذين تسربوا إلى بلاد الشام منذ أوائل القرن الثامن عشر حينما أسسوا مدرسة (عينطورة) في مقاطعة (كسروان) بلبنان في سنة ١٧٢٤م. فقد تركز اهتمامهم أساساً على التعليم الديني في تلك المدارس، لاعتقادهم أنهم بذلك يسيطرون على القوى المسيحية كلها في لبنان، وحتى الآن فإن هؤلاء اليسوعيين لا يزالون في لبنان قوةً تتحدى كُلَّ إصلاحٍ

---

(١) محمد عزت إسماعيل الطهطاوي: المرجع السابق ص١٣.

(٢) محمد عزت إسماعيل الطهطاوي: المرجع السابق ص١٣.

في التعليم الرسمي.

ويظهر الهدف من إنشاء هذه المعاهد التنصيرية على اختلاف اتجاهاتها والجهات التي تتبعها بوضوح في أقوال العديد من المفكرين المسيحيين، مثل (بنروز) الذي قال عندما تسلم رئاسة الجامعة الأمريكية ببيروت في سنة ١٩٤٨م: (لقد أدى البرهان، إلى أنَّ التعليمَ أثمنُ وسيلة، استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان - ومن أجل ذلك تقرر أن يختار رئيس الكلية البروتستانتية الإنجيلية، والتي أصبحت الجامعة الأمريكية اليوم - من مبشري الإرسالية السورية، وهذه الجامعة ولا تزال مؤسسة تبشيرية، بل إن التبشير كان المبرر الوحيد لتأسيسها، لأن الغاية القصوى للكلية أن تحتضن التبشير المسيحي، وتبذر بذور الحقيقة الإنجيلية)[١].

وقد تأسست عدة جمعيات لتقديم الدعم اللازم لحركة التنصير بخاصة في هذين الميدانين، ففي سنة ١٧٩٥م تأسست (جمعية لندن التبشيرية) لمؤازرة (كاري) في جهوده التنصيرية والذي يعتبر من أشهر المنصرين في مطلع العصر الحديث، ثم لم تلبث أن تأسست جمعيات مماثلة في اسكتلندة ونيويورك، وانتشرت هذه الفكرة في ألمانيا والدانمارك وهولنده والسويد والنرويج وسويسرا وغيرها، كما تأسست جمعيات فرعية كثيرة مثل (جمعية التبشير في أرض التوراة العثمانية)[٢]. وقد زاد التنافس الاستعماري بين الدول الاستعمارية في نشاط هذه الجمعيات وتنوعه، ويذكر (أدوين بلس)، أنه في سنة ١٨٥٥م تأسست (جمعية الشبان المسيحيين) من

(١) محمد عزت اسماعيل الطهطاوي: المرجع السابق ص١٤، وقد أورد المؤلف أقوال عدد من مفكري حركة التنصير تؤكد ما ذهبنا إليه. انظر ص١٤ وما بعدها.

(٢) أ.ل شاتليه: المرجع السابق ص١٤.

الإنكليز والأمريكان، وكانت مهمتها العمل على تنصير الشبان، وعقد تلاميذُ المدارس المسيحية في نورثفيلد مؤتمراً اجتمع فيه ٢٥٠ مندوباً عن ٨٠ مدرسة تكفلت بتقديم ١٠٠ شاب للتطوع في نشر الدين المسيحي، ومن هؤلاء تألفت (جمعية الشبان المتطوعين للتبشير في البلاد الأجنبية) ويقول (بلس) أن هذه الجمعية قامت بدور مهم في أعمال التنصير وبخاصة بين المسلمين نظراً لأن شعارها كان نشر الإنجيل بين أبناء الجيل الحاضر، ثم تبع ذلك تأسيس جمعيات أخرى في مختلف الدول الغربية، وقد تميزت من بينها تلك التي تأسست في البلاد التي تدين بالمذهب البروتستانتي مثل انكلترا والولايات المتحدة الأمريكية، والتي كان من أشهرها (جمعية اتحاد الطلبة المسيحيين) في العالم والتي تأسست في سنة ١٨٩٥م، وكانت تهتم بدراسة أحوال التلاميذ في كافة الأقطار وبث روح المحبة!!! بينهم على حد قول (بلس)، فالتحق بها مائة ألف طالب وأستاذ يمثلون أربعين جنسية، ومنها انبثقت (جمعية تبشير الشبان) التي تأسست سنة ١٩٠٢م. والتي كان مجال نشاطها الشباب من الجنسين، ثم تأسست في سنة ١٩٠٧م جمعية أخرى لتنصير الكهول وأخذت منذئذ تباشر أعمالها[١]، فكانت هذه الجمعيات تعملُ بهمةٍ ونشاط لا يعرفُ الكللَ أو الملل في مختلف أنحاء العالم غير المسيحي وبخاصة في بلاد المسلمين.

وبهذه الإمكانيات الضخمة التي كانت تحت تصرف حركة التنصير شنت حملة مسعورة على المسلمين في هذا العصر للقضاء على الإسلام الذي هو في نظرها عدو المسيحية الأول، ومن ثَمَّ تنصيرهم، حتى إن بعض القائمين على هذه الحركة أعطوا الأولوية لتنصير المسلمين على تنصير الوثنيين في إفريقيا وآسيا، مع أنه كان من المفروض أن يحدث العكس،

---

(١) أ. ل. شاتليه: المرجع السابق ص١٤-١٥.

فالمنطق يفرض أنْ تكونَ محاربةُ الوثنيةِ أولى من محاربة الإسلام الذي يعترف بالديانة المسيحية، واتَّبعتْ في هجومها هذا أساليب مختلفة مثل سياسة (فَرِّقْ تَسُد) لحلِّ عُرى التماسك والترابط بين أبناء البلد الواحد، كمحاولتها إشاعة الفرقة بين العرب والبربر في المغرب العربي، أو تقطيع أوصال القطر الواحد إلى كيانات متعددة تفصل بينها حدود مصطنعة ونفخ روح الخلاف والشحناء بينها باستمرار، أو قطع الروابط بين قطر ومصادر رفده بدماء جديدة متواصلة تبعث فيه روح التجديد والتطوير والابتكار ليتقوقع على نفسه ويدخل في طور التكرار والاجترار والابتعاد عن روح العصر فيسقط في هُوَّةِ الجمود والتخلف، فيكون كالنبتةِ التي حُرِمتْ من النور فلا تلبث أن تَذْوي وتموت، وبالتالي يصبح فريسةً سهلة لهذه الحركة، فلا يجد أبناؤه أمامهم إلا ما تُقَدِّمُه هي لهم من دينٍ وفكرٍ وثقافة وحضارة. ولعل خير مثال على ذلك هو البلاد الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، والتي كانت تعرف ببلاد السودان الغربي، التي أصبح لا يربط شعوبها التي تَدينُ غالبيتها العظمى بالإسلام، بإخوانهم في شمال القارة أو في غيرها من الأقطار الإسلامية في ظل الاستعمار إلا علاقات أوهى من خيوط بيت العنكبوت، فانقطعوا بذلك عن منابع الفكر الإسلامي، فنسوا دينهم ولغته، وشابته في أذهان الكثيرين شوائب عديدة، كما أصبحوا لا يحسنون إلا لغة المستعمر ولا ينطلقُ فكرهم إلا من ثقافته، الأمرُ الذي أوجدَ القابليةَ عند بعضهم للتحول عن دينهم الأصلي في الأزماتِ تحت أوَّلِ إغراء، وهو ما نجدُ نماذج له في عصرنا الحاضر في بعض البلاد الإسلامية في قارتي آسيا وإفريقيا كثمرةٍ لهذه السياسة الخبيثة.

محاولات تنصير مسلمي المغرب العربي في عصر الاستعمار:

ومن غير اليسير تتبع نشاط هذه الحركة في هذا العصر في كافة بلاد

المسلمين بطبيعة الحال لتشعبها وتعدد نشاطاتها والجهات القائمة عليها، الأمر الذي يتطلب دراسة مستقلة خاصة بهذا الموضوع، لذلك، فإننا نكتفي هنا بإيرادِ مثالٍ واحد على ذلك هو محاولات تنصير مسلمي المغرب العربي في هذا العصر، نظراً لأن بلدانه كانت أول الأقطار العربية التي اكتوت بنار الاستعمار الأوروبي. فمنذ احتلال الجزائر في سنة ١٨٣٠م والذي رأت فيه الدوائر الكنسية فتحاً مسيحياً مبيناً، بدأ الحلم القديم والمتمثل في إعادة هذه البلاد إلى حظيرة المسيحية يُراودُ القائمينَ على هذه الحركة، فكان من أول الأعمال التي قامت بها هي محاولة كتابة تاريخ الكنيسة الإفريقية، والعودة إلى العهدين الروماني والبيزنطي لتعطي للعمل التنصيري أسساً تاريخية تضرب جذورها في الأعماق وتعود إلى قرون بعيدة وتظهر أن الفتح الإسلامي وانتشار الإسلام في هذه البلاد كان حدثاً طارئاً نحا بالحياة فيها منحىً خاطئاً يقتضي التصحيح، وكان الراهب (جان مسناج Jean Me'snage) من أبرز الذين كَرَّسُوا جهودهم لهذا العمل، فألف كتابه المسمى (المسيحية في إفريقية) الذي أحدث ضجة كبيرة في الأوساط الثقافية والكنسية، ونال الكثير من التقريض وانهالت رسائل التشجيع والإعجاب على صاحبه، فكتب إليه الأسقف (جوتي Gotti) قائلاً: (لكم مني أجمل التهاني على دراستكم التي تهدف إلى تسليط الأضواء على أمجاد الحضارة المسيحية في إفريقيا الرومانية)[١].

---

(١) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٣٥، وراجع مؤلفاته التالية:

A)Le chrianism en Afrique جزءان (١٩١٥ الجزائر - باريس).

B) Une Page de I' Histoire de I' Ancime Englise D' Afrque, Revue Africain, 1903.

C) La Romanisation de I' Afrique (١٩١٤ باريس).

D) Le Christ en Afrique (١٩١٥ باريس).

وفي غضون ذلك نشطت الكنيسة في تنظيم هياكلها ومؤسساتها التنصيرية في المغرب العربي معتمدة في ذلك على العلاقة الوطيدة التي تربطها بالسلطات الاستعمارية، فَدَبَّ النشاطُ من جديد في جمعية المنصرين في الجزائر، وقد أعطى قانون الأبرشية الصادر في سنة ١٨٤٩م دفعة قوية لهذه الجهود، حيث أكَّدَ على الرهبان المنصرين الذين كانوا متواجدين في تلك البلاد، ضرورةَ تَحَيُّنِ الفُرصِ لتنصيرِ المسلمين والذي تعتبر دراسةُ اللغة العربية أمثلَ السُّبُلِ المؤدية إليه، فقد نَصَّ أحدُ بنوده على ما يلي: (ينبغي أن لا ينسى الرهبان مهمتهم الأساسية لدى الأهالي - أي تنصيرهم عندما تحين الفرصة -، ولذا يجب عليهم تعلم اللغة العربية والقرآن، ودراسة عادات الأهالي وتقاليدهم حتى يتمكنوا من إطلاعهم على الجانب المغلوط والغير أخلاقي في عقيدتهم)(١)!!!. ويعتبر (فرانسوا بورغاد Francois Bourgade) «١٨٠٦-١٨٦٦م» أول مَنْ تَزَعَّمَ حركةَ التنصير في المغرب العربي في القرن التاسع الهجري، ومن أكثر المنصرين في هذه الفترة نشاطاً بحيث يعتبر بحق المُجَدِّدَ لهذه الحركة في ربوعه.

استهل (بورغاد) جهوده في الجزائر حيث أقام فيها عدة سنوات ينظم فيها نشاطات هذه الحركة ويحشد الطاقات والإمكانات لها ويشرف على توجيهها. ثم انتقل منها إلى تونس في سنة ١٨٤٠م مرافقاً (لأخوات الصفاء الساعيات في مصالح الفقراء والمرضى ابتغاء مرضاة الله) اللواتي غادرن الجزائر لخلافهن مع أسقفها، حيث برز دورهُ التنصيريُّ منذئذٍ بشكل أوضح، فقد طَبَّقَ أساليبَ التنصير الجديدة فأسس مدرسة، ومعهد (سان لويس) ومستشفى، ومطبعة حجرية. وشرع في تأليف كتب تركز موضوعها

(١) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٣٥.

على قضايا الأديان بأسلوب الحوار البسيط ليصل في نهاية هذا الحوار إلى تفضيل المسيحية على الإسلام، وبالتالي ضرورة اعتناقها للخلاص ونيل السعادة في الدارين الأولى والآخرة. ويعتبر كتابه المسمى (مسامرة قرطاجنة) أشهر هذه المؤلفات الذي نشره بالفرنسية أولاً في باريس سنة ١٨٤٧م، ثم ترجمه إلى العربية بالتعاون مع أحد طلبة معهد سان لويس هو المدعو سليمان الحرائري (١٨٢٤-١٨٧٧م) وطبع في المطبعة الحجرية في تونس في سنة ١٨٥٠م بعنوان (مسامرة قرطاجنة، محادثات بين مُفْتٍ وقاضٍ وراهبٍ نصراني)، كما اشتهر من بين مؤلفاته الأخرى كتابه المسمى (مفتاح القرآن)، وكتاب (المرور من القرآن إلى الإنجيل)[١].

ولم يكتف (بورغاد) بما تقدم، بل أسس في سنة ١٨٤٧م جمعية للأغراض التنصيرية أطلق عليها (جمعية سان لويس)، أو جمعية القديس لويس، إحياء لذكرى لويس التاسع ملك فرنسا الذي قام بحملته الصليبية على تلك البلاد على أمل تنصيرها كما تقدم ذكره، هذه الجمعية أو الحملة الصليبية السلمية التي كان هدفها (نشر الحضارة المسيحية بواسطة مؤلفات مكتوبة بلغتهم أو مترجمة إليها)[٢]، وهو في كل ذلك كان يسعى جاهداً لإيهام المسلمين بصحة المسيحية الكاثوليكية وبطلان الإسلام وزيفه. وأخيراً غادر تونس بعد إقامة قاربت العشر سنوات ليواصل نشاطه في باريس إلى أنْ أدركته منيته بعد أن تقلد وسام الشرف الفرنسي على الجهود الذي بذلها في خدمة بلاده بخاصة والحركةَ التنصيريةَ بعامة في المغرب العربي.

وخلف (بورغاد) في ميدان التنصير في المغرب العربي مُنَصِّرٌ آخر لا يقلُّ

---

(١) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٣٦.

(٢) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٣٦-١٣٧.

عنه حماساً، بل فاقه نشاطاً ونعني به الكاردينال (لافيجيري Lavigerie) «سنة ١٨٢٥-١٨٩٢م) الذي بدأ اتصاله بالعالم الاسلامي في سنة ١٨٦٠م حين زاد بلاد الشام مصطحباً معه إعانة جمعت في أوروبا لمساعدة المسيحيين في الفتنة التي احتدمت بينهم وبين الدروز وقتئذ، حيث تَكوَّنَ لديه الاعتقادُ هناك بأنَّ الاسلامَ هو أخطر أعداء المسيحيين، ولذلك يجب العمل للقضاء عليه وتنصير معتنقيه، وعند انتهاء مهمته مَرَّ في طريق عودته إلى باريس بالفاتيكان، وقابل البابا وأطلعه على أفكاره وبسط له آراءه المتعلقة بالتنصير طالباً مساندته، والتي لم يطل به الانتظار لوضعها موضع التنفيذ، إذ في سنة ١٨٦٧م عَيَّنه حاكمُ الجزائر العام الفرنسي الماريشال (ماكماهون) أسقفاً لتلك البلاد بعد أن كانت الحكومة الفرنسية قد أنعمت عليه في سنة ١٨٦١م بوسام الشرف الفرنسي أيضاً تقديراً منها لجهوده في الشرق[١].

كانت تتملَّك (لافيجيري) فكرة تحقيق حلم الحركة الصليبية القديم والمتمثل في وجوب بعث المسيحية في المغرب العربي من جديد، لذلك، باشر منذ تعيينه في نفخ هذه الروح في المُنَصِّرين المتواجدين في الجزائر فكتب إليهم في ٥ مايو ١٨٦٧م قائلاً: (سآتيكم إخواني الأعزاء، في ساعة مشهورة في تاريخ إفريقية المسيحية... الكنيسة وفرنسا متفقتان على إحياء أمجاد الماضي)[٢]، ولذلك رأى منذ وصوله إلى الجزائر في ١٥ مايو سنة ١٨٦٧م ليس العمل على تنصير مسلمي البلاد فحسب، وإنما أيضاً دمجهم بالفرنسيين، وللوصول إلى ذلك، وضع مشروعاً متكاملاً يتلخص في وجوبِ تربيةِ أطفالِ المسلمين تربيةً مسيحية، والذي لاقى دعماً كبيراً من

---

(١) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٣٧.

(٢) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٣٨.

السلطات الاستعمارية الفرنسية، ولم يُخْفِ هدفه من هذا المشروع، فهو يقول: (وإذا ما تَمَّت المواظبةُ على هذا المشروع - أي مشروع تربية الأطفال - . . . فإنه سيكونُ لنا بعد بضع سنوات مَشْتَلٌ من العمال النافعين المؤيدين لاستعمارنا الفرنسي والأصدقاء له، ولنقلها بوضوح: من العرب المسيحيين، إن هؤلاء الأطفال المساكين الجاهلين غاية الجهل بكل شيء سواء بأمور دينهم، أو بغيرها، ليس لهم حتى من هذه الوجهة أيّ رأيٍ مُسْبق وأيّ نُفورٍ منا، ولا أشكُّ في أنَّ الكثير منهم متى استفادوا من أقوالنا - أي دعوتهم للمسيحية - فإنهم سيطلبون بأنفسهم يوماً ما التعميد.

وسيكونُ ذلك بدايةَ تَجَدُّدِ هذا الشعب، وسيكون ذلك هو الدمج الحقيقي الذي يجري البحث عنه لكن دون طائل، لأن البحث عنه قد كان إلى حد الآن مع القرآن، وسنكون مع القرآن بعد ألف سنة كما نحن اليوم كلاباً من المسيحيين في نظر هذا الشعب وسيكون ذبحنا وإلقاؤنا في البحر عملاً مقدساً يُثَابُ عليه فاعلُه. . . لذلك، يجب إنقاذ هذا الشعب، ينبغي تلافي أخطاء الماضي، لا بُدَّ من وضعِ حَدٍّ لحصرِه في قرآنه كما وقع ذلك خلال مدة طالت أكثر من اللازم. . . يجب أن نلهمه عن طريق أبنائه على الأقل، أحاسيسَ أُخرى ومبادىء أخرى، وينبغي أن تقدم له فرنسا، بل أنا مخطىء، تسمح بأن تقدم له مبادىء الإنجيل بإشراكه أخيراً في حياتنا، أو أنْ تطرده في الصحاري، بعيداً عن العالم المتمدن)[1].

وهكذا وضع (لافيجيري) مسلمي الجزائر مستقبلاً كاملَ المغرب العربي أمام خيارين؛ إما التنصر، أو الطرد خارج المعمور إلى الصحراء الكبرى ليلاقوا المصيرَ التعس الذي ينتظرهم، ومَنْ يقرر هذا المصيرَ لهم؟ يقرره رجلُ دِينٍ يتبوأ أعلى مرتبةٍ في سلك الكهنوت الكاثوليكي بعد البابا.

---

(١) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٣٨-١٣٩.

والّذي من المفروض تَبَعاً لذلك، أنْ يكون قلبُه ينضح بالرحمة والعطف، ولكنه التعصبُ الأعمى الذي لم يعرف القائمون على حركة التنصير على مر العصور غيره وبخاصة ضد الإسلام والمسلمين. ولم يجد هذا الداعيةُ أيَّ غضاضةٍ أو حَرَجٍ في الإشارة إلى العدو الأول لحركة التنصير، ألا وهو القرآنُ دستورُ المسلمين وجوهر عقيدتهم، فهو يقول وبكل وضوح: أنه لا نجاحَ لهذه الحركةِ مع وجودِه، فقد صمد المسلمون به ألفَ سنة، وسوف يستمرُّ صمودُهم هذا إلى ما لا نهايةَ ما دام بين ظَهْرانيهم، لذلك يجب القضاءُ عليه وفَصْلُهم عنه لِيَسْهُلَ تَنصيرُهم. كما أنه في هذا النص رَسَمَ مصيرَ مَنْ يعتنقون النصرانية منهم بأنهم سيكونون مجرد عمال في خدمة المستعمر وركائز الاستعمار الفرنسي في البلاد.

وقد وجدت آراء (لافيجيري) المتطرفة وتهجمه على الاسلام معارضةً من السلطات الاستعمارية الفرنسية حتى من ماكماهون نفسه خشيةَ إثارةِ المتاعب في وجه هذه السلطات التي كانت لها سياستها الأخرى الخاصة بها لإحكام قبضتها على البلاد، إلا أن (لافيجيري) لم يكتف بعدم الانصياع لنصائح السلطات المذكورة وحتى لتعليمات الامبراطور نابليون الثالث الذي وصلته أنباءُ هذا الخلاف بين الطرفين فطلب منه التَّحلِّي بالمرونة[1]، بل مضى قُدُماً في تنفيذ سياسته مستغلاً في ذلك مجاعة عام ١٨٦٨م حيث أنشأ داراً لرعاية الأيتام في وادي شليف، وبَثَّ رهبانُ طريقته أو جمعيته الجديدة (جمعية مبشري إفريقية) التي عُرِفَ أعضاؤها (رهبانها) بالآباء البيض، والذين لا زالتْ لهم مراكزُ في العديد من مدن المغرب العربي حتى عصرنا الحاضر، بَثَّهم وقتئذٍ في طول البلاد وعرضها لجمع الأطفال اليتامى لإيوائهم في تلك الدار تمهيداً لتنصيرهم، آملاً أن تتطور الدارُ

(١) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٣٩-١٤٠.

المذكورة ومثيلاتها التي كان يرغبُ في إنشائها لتصبح قُرىً عربية مسيحية والتي ستصبح بدورها نواة لإفريقيا المسيحية، وليس ذلك فحسب، وإنما أخذ يوجه انتقاداتٍ علنية للسلطات الحاكمة التي أرادها أنْ تكونَ الحاميةَ لسياسته التنصيرية على ما اعتبره تراخياً منها في مساندة تلك السياسة، وصَحَّ ما تَوقَّعتهُ تلك السلطات إذ لم تلبث أن اشتعلت في منطقة القبائل ثورةٌ كبرى هي ثورة المقراني (١٨٧٠-١٨٧١م) التي كانت سياسة (لافيجيري) التنصيرية أحدَ أسبابها الرئيسية[١].

ولإقناع السلطات الاستعمارية على ما يبدو بأفكاره ومشاريعه لم يتورع (لافيجيري) أيضاً عن اختلاقِ قصصٍ خيالية ليوضح نتائج تنشئته لأطفال مسلمين، النشأة التي ينشدها تدعيماً لوجهة نظره، مثل قصة (شارل عمر بن سعيد) التي اختلقها ورَوَّجها على أنها حقيقية، والتي ذكرها العديد من الذين أرَّخوا لحياته مثل الراهب (بونارد Bounard) حيث أوردها في الجزء الأول من كتابه عن حياة هذا الكادرينال والذي كان بعنوان (Le Cardinal Levigerie) والتي مفادها أن لافيجيري التقى في سنة المجاعة بالجزائر (سنة ١٨٦٧م) التي سبقت الإشارة إليها بطفلٍ مسلمٍ في العاشرة من عمره يتيم الأب اسمه (عمر بن سعيد)، والذي قدم إلى دار الأيتام التي أنشأها هذا الكاردينال، وكان ذلك بناء على نصيحة أمه التي لم تعد تملكُ شيئاً لإطعامه، وقد صادف في طريقه من موطنه في الجبال إلى تلك الدار العديدَ من الأخطار، فكان - لخوفه من العرب الذين قيل له أنهم يخطفون الأطفال ويأكلونهم -، يسيرُ في النهار ويأوي في الليلِ إلى أحدِ المخابىء أو الحُفَرِ التي كان يصادفها في طريقه، ولم يكن يتناول من الطعام أثناء ذلك إلا ما تَيَسَّرَ له من حشائش البرية، وقد حاول طَلَبَ

(١) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٤١.

الطعام والمأوى من بعض شيوخ الزوايا المسلمين، إلا أنَّ هؤلاء وكما تزعمُ الأسطورةُ كانوا من الغلْظة والقسوة بحيث أنهم لم يكتفوا بطرده، بل إنهم أطلقوا عليه كلابهم لتنهشه حينما لاحظوا منه التباطؤ في الانصراف، الأمر الذي جعله يُسرعُ بالهرب، وتَخْلُصُ الأسطورةُ إلى النتيجة التي يَنشدها الكاردينال، وهي أنَّ هذا الطفل يقبل على التنصر برغبةٍ صادقة حيث يتم تعميدُه ويحملُ الاسمَ الأول للكاردينال المذكور فيصبح اسمه (شارل عمر بن سعيد)، ويقيم في تلك الدار وينتهي به المطافُ إلى الاستقرار فيها والتزوج من فتاة مسيحية مُفَضِّلاً حياته الجديدة على الرجوع إلى أمه، معتبراً أنه وجد في الكاردينال أباً أفضل من والديه[١].

وبهذه القصة المختلقة وأمثالها التي رَوَّجها على أنها حوادث وقعت بالفعل، حاول كسبَ الدعمِ لمشروعهِ الآنفِ الذكر الذي رأى فيه الطريق الأمثل للتنصير والذي هو بدوره الطريق الوحيد لإحكامِ الهيمنةِ الاستعمارية على البلاد، فقد كتب يتحدث عن دار رعاية الأيتام التي أنشأها قائلاً: (إن ما نريده بهذا - أي إنشاء تلك الدار - هو ضرب مثل نبين ما يمكن أن يُرْجى يوماً ما من هذا الجنس الإفريقي الذي هوى إلى الحضيض وذلك بإنشاء قريةٍ عربية في ظل الصليب، ولو كان ذلك في ظروف غير ملائمة فإن ما يعترض احتلالنا النهائي للجزائر هو في الواقع مسألة دين كما قلناه مراراً)[٢]، الأمر الذي يؤكد ما ذهبنا إليه من ترابطٍ وثيقٍ بين الاستعمار وحركة التنصير.

كان طموحات (لافيجيري) التنصيرية تتجاوز حدود الجزائر بكثير، لذلك

---

(١) انظر Mgr. Baunard: Le Cardinal Levigerie, Tom 1, P.203-4، كذلك د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٤٠-١٤١.

(٢) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٤٢.

لم يلبث أنْ وَسَّعَ دائرةَ نشاطاته حينما تَمَّ رَسْمُه أسقفاً لتونس بالإضافة إلى كونه أسقفاً للجزائر، فقامت سياسته فيها على دعامتين رئيسيتين متساندتين هي بعث أمجاد المسيحيين فيها وتنشيط حركة التنصير، ثم التمهيد لبسط الحماية الفرنسية عليها، وفي الاتجاه الأول، اهتم بإنشاء كنيسة (سان لويس) على ربوة (بيرصا) بموقع قرطاج، حيث أقيمت في الموضع الذي يعتقد بأنه ضَمَّ رُفاتَ الملك الفرنسي لويس التاسع بصفةٍ مؤقتة إثر وفاته إبَّانَ حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالثامنة التي قادها إلى إفريقية كما تَقَدَّمَ ذِكْرُه، لحين رحيل الصليبيين ونقله معهم، فضلاً عن إنشاء فرعٍ لرهبان جمعية (الآباء البيض) في تونس، والعمل على تنفيذ مشروعه فيها أيضاً أُسوةً بما تم في الجزائر، وأما في الاتجاه الثاني فقد عمل جاهداً على إدخال تونس في حظيرة الاستعمار الفرنسي، فكان هو الذي رفع شعاره «انتصاب حماية فرنسا الدينية» عليها، وكان المرجع الأهم لكلٍّ من (قامبتا)، و(جول فيري) ودليلهما في وضع خطةِ احتلالِ البلاد التونسية، ولعل في ما ينقله الدكتور الحبيب الجنحاني عن (لويس بيرترو Louis Bertraud) ما يؤكد هذه الحقيقة، حيث كتب في سنة ١٩٢٥م بمناسبة مرور قرن على ميلاد (لافيجيري) يقول: (لو لم يقم إلا بتهيئة انتصاب حمايتنا على تونس، تلك الحماية التي كان يمكن عقدها قبل الأوان الذي عقدت فيه لو استمع إليه، وبأقل مما كَلَّفتنا من الرجال والأموال بكثير لاستحقَّ كُلَّ اعترافٍ بالجميل من الوطن الأم...)[1].

ولم يكتف (لافيجيري) بنشاطاته في كل من الجزائر وتونس، وإنما سارع بنقلها إلى قلب القارة الإفريقية، فقد بث العديد من دعاماته المنصرين بين شعوب إفريقيا الوسطى يدعونهم لاعتناق المسيحية، وكان

---

(١) د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٤٢.

يأمل بذلك أن يصبح المغرب العربي بعد تنصيره قاعدة الانطلاق لتنصير القارة الإفريقية بأسرها، حيث بَيَّنَ ذلك بوضوح في رسالته الشهيرة التي وجهها إلى الرهبان المنصرين في الجزائر عند تعيينه أسقفاً لها، وحسب ما أورده الراهب بونارد في تاريخه: (إنني سعيت لتحقيق الفتح معكم، ولجعل الأرض الجزائرية مهداً لأمة عظيمة، سخية، مسيحية، فرنسا أخرى، وبعبارة واحدة: لننشر من حولنا النور الحقيقي لحضارة يكون الإنجيلُ أساسَها ودستورَها، وننقل هذا النور إلى ما وراء الصحراء، إلى قلب هذه القارة الكبيرة الغارقة في دياجير الظلام والتوحش، أي ربط إفريقيا الشمالية وإفريقيا الوسطى، بحياة الشعوب المسيحية، وهو المصير الذي اختاره لنا الإله)[١]. وهكذا لم يكن هذا الكاردينال رجلاً حالماً، وإنما كان واقعياً ورجل عمل، يرسمُ الخطةَ ويسارعُ إلى وضعها موضعَ التنفيذ مُسَخِّراً لذلك كُلَّ ما يتاحُ له من إمكانات، ومن هذا المنطلق بلغت حركة التنصير في المغرب العربي أوج نشاطها في العصر الحديث.

وقد واصلت هذه الحركة العمل بسياسة (لافيجيري) التنصيرية في بلدان المغرب العربي فيما بعد، حيث فتح لها ميدان آخر في مطلع القرن العشرين هو المغرب الأقصى، إذ منذ فرض الحماية الفرنسية عليه آنذاك، بُوشِرَ في تنفيذِ تلك السياسة، وأخذ المنصّرون يجوبون القرى والبوادي يدعون الأهالي إلى المسيحية مستعملين في ذلك الكثير من الإغراءات لجذبهم، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، ولإحداث التخلخل في المجتمع وحَلِّ عُرى روابطه ليسهلَ التسللُ إليه، بوشر في بَثِّ رُوحِ الشِّقاقِ

---

(١) كذلك د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٣٩. Mgr. Baunard: Op. Cit., Tom 1, P.164.

بين العرب والبربر فيه، وما الظهير البربري إلا أحد الأدلة الهامة على ذلك.

ومما تقدم، يتضح أنَّ المغرب العربي تَعرَّضَ في ظل الاستعمار الفرنسي إلى حملةٍ تنصيريةٍ شعواء، كان الكاردينال (لافيجيري) أحد كبار دعاتها والقائمين عليها، ثم إن بلدانه الثلاث التي أظلها هذا الاستعمار لم تنفرد بها دون سواها من أقطار العالم الإسلامي، بل تعرضت جميعها عَصْرئذٍ إلى حملات مشابهة، كانت كلها في جوهرها تُدارُ من قبل حركةٍ مركزية واحدة وإن اختلفت الدولُ الاستعمارية التي فرضت هيمنتها على هذه الأقطار شرقاً وغرباً، فالإسلامُ في نظرها كُلّها أينما وُجِدَ، هو العدو الأول الذي يقفُ لمطامعها وأهدافها بالمرصاد، الأمر الذي يُحَتِّمُ عليها التخلُّصَ منه، وكُلٌّ من هذه الدول الاستعمارية سلك الطريق التي رأى أنها هي الأفضل والأقرب لتوصله إلى تحقيق أهدافه، وتبعاً لذلك، فإنها إذا اختلفت أحياناً في المظهر، إلا أنها دون شك تتفق جميعاً في الجوهر.

فشل حركة التنصير في عصر الاستعمار:

ولكن، ما هي النتائج التي حققتها حركةُ التنصير في بلاد المسلمين في هذا العصر؟ إننا لا نتجاوزُ الحقيقةَ إذا قلنا أنها لم تحقق نتيجةً تُذكر، فبالرغم من الإمكانات الضخمة التي وضعت تحت تصرفها، وبالرغم من الدعم والمساندة اللتين كانت تَتلقَّاهما من البابوية ومن القائمين على الحركة الصليبية، وأنها تحالفت مع الدول الاستعمارية بجبروتها وقدراتها العاتية، بالرغم من كل ذلك، فإنها فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيقِ ما كانت تصبو إليه، وذلك باعترافِ العديدِ من الباحثين وحتى من بعض رجالات الكنيسة، إذ يقول المستشرق الفرنسي (جاك بيرك J.Berque) في كتابه المسمى (Le Maghrreb Entre Deux Guerrres) في ذلك: (إنَّ من

اعتنق المسيحية من الجزائريين في عهد لافيجيري لم يبلغ الألف، بالرغم من الإمكانيات الكبرى التي سخرها لهذا الغرض، ومساندة السلطات الاستعمارية، واستغلاله كارثة المجاعة وانتشار الأوبئة في سبيل تنفيذ مشروعه)[١]، وكانت غالبيتهم العظمى بطبيعة الحال من أولئك الأيتام المساكين والمعوزين الذين أغواهم مُنَصِّرُو جمعيته فوقعوا في شِرَاكه وأقاموا في دار رعاية الأيتام التي أنشأها، والذين لو تُرِكَتْ لهم حرية الخيار لغادرها معظمهم بعد أن انكشفت غُمَّةُ المَجاعة، إذ رفض بكل عناد السماحَ لهم بمغادرتها كما طلبت سلطات الاستعمار الفرنسي، وبالتالي لتناقص هذا العدد إلى حد كبير[٢]، يضاف إلى ذلك ما يورده الدكتور الحبيب الجنحاني من أن الراهب (قسطنطيني Constantini) سكرتير الدعاية المقدسة، وأحد مشاهير القائمين على حركة التنصير في القرن العشرين، قد أعلن في سنة ١٩٤٠م فشل هذه الحركة في تحقيق الكثير من أهدافها بالرغم من التغيير الذي طرأ على أساليبها في هذا القرن على يد البابوين «بي» الحادي عشر سنة ١٩٢٢م و«بي» الثاني عشر سنة ١٩٣٩م، ويضيف أنه بالرغم من الجهودِ الجبارةِ التي بذلت خلال القرون الأربعة السابقة، فإنَّ النتيجة المحصلة لم تزد عن كونها كقطرةٍ في محيط، فضلاً عن ما صرحت به الفاتيكان نفسها في تلك الرسالة التي وجهتها إلى رئيس الأسابيع الاجتماعية في فرنسا بمناسبة تنظيم أيام مسيحية في ليون سنة ١٩٤٨م حيث اعترفت فيها بفشلِ سياسةِ التنصير في المستعمرات[٣].

---

(١) انظر J.Berque: Le Megreb Entre Deux Guerres, P.231.

(٢) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٤٤.

(٣) راجع Peuples D'oovtre - Mer et Civiilisation occidentale, semaines Sociales de France. Paris, 1948.

كذلك د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص١٤٤.

وهكذا فشلت حركةُ التنصير في تحقيق أهدافها في عصر الاستعمار، كما فشلت في العهود السابقة، والسببُ الرئيسي في ذلك في اعتقادنا، يعود إلى أنَّ الإسلامَ حَصَّنَ معتنقيه بفكرٍ سَمَا بهم إلى الأعالي، وأكسبهم على بساطته مناعةً قوية لم تتمكن الحجج التي يقدمها المُنَصِّرون من اختراقها، ولم تستطع الارتقاء إلى مستوى الفكر الإسلامي أو الصمود أمامه، بالرغم من سياسةِ التجهيلِ بهذا الدين وتجميد هذا الفكر المنبثق عنه إن لم نقل طمسه، تلك السياسة التي كانت تنفذها السلطات الاستعمارية وقتئذٍ بالتعاون مع تلك الحركة، وبالتالي انقضى هذا العصر أيضاً دون أن تفلح الحركة المذكورة في تحقيق ما كانت تصبو إليه في بلاد المسلمين، وبقي الإسلام قوياً عزيزاً رايته في مشارق الأرض ومغاربها بالرغم من الوضع السياسي المتردي للمسلمين في العصر الحديث، وما يعانيه معظمهم من فقر وتخلف حضاري.

حركة التنصير والاستشراق:

بقي أن نشير ولو إشارة عابرة إلى العلاقةِ الوطيدةِ بين حركة التنصير وحركة الاستشراق. إنه لا يسعنا في هذا المقام أنْ نخوضَ بطبيعة الحال في خلافِ الباحثين حول تحديد مفهوم الاستشراق ودوافعه وتاريخ نشأته، فقد تعددت الآراءُ في هذا الموضوع، وكثرت فيه الدراسات، ولا تزال تظهر بين الحِينِ والآخر دراساتٌ جديدة تتضمن آراء ووجهات نظر أخرى جديرة بالاهتمامِ والبحث[1]، ولكن مهما كثرت هذه الدراسات وتَشعَّبت هذه الآراء واختلفت إلى حد التضارب أحياناً، تبعاً لميولِ أصحابها فيما إذا

(١) ناقش الدكتور أحمد سمايلوفتش هذا الموضوع بإسهاب، فيمكن للراغب في الزيادة عنه الرجوع إليه. (د.أحمد سمايلوفتش: «فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر»، ص٢١ وما بعدها).

كانوا شرقيين أو غربيين، مستشرقين منصفين أو متعصبين حاقدين، مسلمين أو سواهم، فإنه تبقى هنالك في اعتقادنا ثمة حقيقة بارزة لا يخفيها التشكيكُ بشتى صوره وأساليبه، هي أنَّ حركةَ الاستشراق كانت وليدةَ الحركة الصليبية، وأنها لم تقم إلا لخدمةِ حركةِ التنصير ولمساعدتها في تحقيقِ أهدافها، بالرغم من المحاولات التي بذلت لصرف الأذهان عن هذه الحقيقة.

والأدلة على ذلك كثيرة، لا يسعنا أيضاً بسطها بأجمعها، وإنما نكتفي بذكرِ واحدٍ منها، هو أنَّ هذه الحركة كانت ثمرةَ جهودِ العديدِ من القائمين على الحركة الصليبية في أواخر العصور الوسطى، ودعاة الصليبية السلمية بالذات، أي التنصير، فالرعيلُ الأول من المستشرقين هم نفسهم الأعلامُ الأوائلُ لحركة التنصير، مثل: جوكيم، ووليم الطرابلسي، وبطرس المكرّم (المُبَجَّل) (١٠٩٤-١١٥٦م)، وتوما الإكويني (١٢٢٥-١٢٧٤م)، ورامون مارتي (١٢٣٠-١٢٨٤م)، ورامون البنيافورتي (١١٧٦-١٢٨٠م)، وروجر بيكون (١٢١٤-١٢٩٤م)، ورامون لول (١٢٣٢-١٣١٥/١٣١٦م) وغيرهم، وإذا وجد من سبق هؤلاء إلى الاهتمام بالاستشراق مثل البابا سفلستر الثاني، وقسطنطين الإفريقي وغيرهما، فإنه كانت تربطهم بالحركة الصليبية علاقة وثيقة، وبالتالي فإنهم هم الآخرون لم يكونوا بعيدين عن العمل لتحقيق أهدافها، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإنَّ جهودهم هي التي نبهت هذه الحركة إلى أنَّ صراعها مع المسلمين ليس صراعاً سياسياً وعسكرياً فحسب، وإنما هو صراع ديني وفكري وحضاري أيضاً، وبالتالي فإن ذلك الصراع يفرض على القائمين على هذه الحركة الاطلاع على دين المسلمين وفكرهم وحضارتهم في شتى مظاهرها والحَثّ على ذلك للتعرف على هذا العدو العنيد، ولذلك، وبجهود رامون البنيافورتي تَمَّ إنشاءُ مدارس تعليم اللغة العربية (Studium Arabicom) الخمس للرهبان

المنصرين، والتي كانت مدرسة تونس إحداها كما مَرَّ ذِكْرُه، وأسس رامون لول كلية ميرامار في ميورقة في سنة ١٢٧٦م لنفس الغرض، وبجهوده أيضاً أصدر مجمع فينا قرار إنشاء كرسي الدراسات الشرقية في كل من جامعات أوروبا الغربية المشهورة وقتئذٍ كما تقدم ذكره أيضاً.

كانت هذه هي نقطة الانطلاق لحركة الاستشراق، وأما الذين احتضنوا نَبْتَةَ هذه الحركة مذ ذاك وتَعهَّدُوها بالرعاية والعناية حتى نمت وترعرعت واشتدَّ ساقها. فإنهم هم الآخرون كانوا صِنْوَ الذين بذروا بذرتها، فمنذ صدور قرار مجمع فينا الآنف الذكر أخذ الاهتمامُ بالدراسات المتعلقة بتراثِ الشرق والإسلامي منه بصفة خاصة يَشقُّ طريقَهُ وينتشر في الجامعات الأوروبية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد بتأثيرٍ من فكرِ هؤلاء الدعاة وبخاصة رامون لول الذي ظلَّ فكره يؤثر في الثقافة الغربية حتى إلى ما بعد هذين القرنين، وبقيَ موضعَ بحثٍ وجدلٍ بين الطبقة المثقفة في باريس بصفة خاصة التي غَدَتْ جامعتها وقتئذٍ المركزَ الأهم للدراسات الفلسفية والإنسانية، ثم جاءت الحركة الإنسانية (Humanism) بعد ذلك فعززت هذا الاتجاه أثناء محاولاتها البحث عن ثقافة عالمية، ومن خلال تطلعاتها واهتماماتها السياسية والتجارية إذ وسعت دائرة هذه الدراسات وعَمَّقتها لتصبح مجموعةً من الدراسات الإسلامية المتخصصة.

ويعتبر (وليام بوستل Guillaume Postel) الفرنسي (١٥٠٥م-١٥٨١م) الذي كان أحد أعلام هذه الحركة من أشهر مَنْ أسهموا بنصيب كبير في تقدم حركة الاستشراق وازدهارها وتطورها ووضع أسس مسيرتها في القرون التالية. كان بوستيل قد نذر نفسه لخدمة المسيحية، فوجد في هذه الحركة مجالاً رحباً للوصول إلى بغيته، فسخَّرَ عِلْمَهُ الواسع وحِدَّةَ ذهنه وإتقانه فَنَّ الجدل والمناظرة فضلاً عن نشاطه الكبير لهذا الغرض، وقد

أعانته إرادته القوية على ذلك، فَجدَّ في تَعَلُّم اللغات لأهميتها البالغة بالنسبة له، فأجاد اللاتينية واليونانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والعربية والسريانية والعبرية والكلدانية والأرمنية والحبشية فضلاً عن الفرنسية، ونتيجة لحماسه الشديد وثقافته الواسعة ومواهبه المتعددة ألحقه (فرانسوا الأول) ملك فرنسا بسفارته في استانبول لدى السلطان سليمان المشرع (القانوني) انطلاقاً من المبدأ الذي قررته اتفاقية سنة ١٥٣٥م بين هذين العاهلين كما سبقت الإشارة إليه[١].

وقد أفادته إقامته في العاصمة العثمانية فائدةً كبيرة، فقد أتاحت له الفرصةَ للاطلاع على أوضاع جزء كبير من أقطار العالم الإسلامي ودراستها والإشراف على الجهود التنصيرية في ربوعها وتنظيمها ووضع الخطط الكفيلة بدفعها إلى الأمام وتنشيطها وتطويرها، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، كانت فرصة ذهبية له أيضاً للاطلاع على نفائسِ الكتبِ في شتى فروع المعرفة الإسلامية، والتي كانت تُجلبُ إلى حاضرة السلطنة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي حتى زخرت مكتباتها بهذه الثروة الفكرية الضخمة، فنهل منها ما أطاق، ولم يغفل في الوقت ذاته عن المُضِيِّ قُدُماً في تنشيط الاهتمام بالدراسات الشرقية في موطنه وبخاصة دراسة اللغة العربية التي كان يعتبرها مفتاحَ الاطلاع على تراث الشرق وفهمه، وتكللت جهوده هو ونظراؤه من أعلام الحركة الإنسانية بالنجاح، إذ أنه في سنة ١٥٣٩م تم إنشاء أول كرسي للغة العربية في (الكوليج دي فرانس) بباريس شغله بوستل نفسه[٢].

وتربى على يد بوستل منذ شغله منصبه الجديد، أجيال من التلاميذ كان

---

(١) د.أحمد سمايلوفتش: المرجع السابق ص٦٠ وما بعدها.

(٢) د.أحمد سمايلوفتش: المرجع السابق ص٦٠-٦١.

لهم أثرٌ قويٌّ ومباشر على حركة الاستشراق، من أشهرهم (جوزيف سكاليجيه Joseph Scoilige «١٥٤٠-١٦٠٩م») الذي كان عالماً موسوعياً شديد الحماس للتنصير، فسار على نفس خطى أستاذه في العناية بحركة الاستشراق ودعم النشاط التنصيري بهذه الوسيلة، وكان من أبرز أعماله في هذا المجال استجلاب ما وصلتْ إليه يده من نفائس المخطوطات الخاصة بتراث المسلمين حتى أغنى بها المكتبات الكبرى في فرنسا وسواها، وهدفه من ذلك هو تنمية معارف الأوروبيين فضلاً عن إطلاعهم على التراث الإسلامي ليفتح أمامهم آفاقاً جديدة، لإيجادِ جيلٍ جديد من المستشرقين الذين سيمضون قُدُماً في حمل رسالة التنصير إلى شعوب الشرق بمن فيهم من المسلمين بطبيعة الحال على أسس علمية.

ولم تلبث حركة الاستشراق أنْ خَطَتْ في سنة ١٥٨٦م خطوةً واسعة في تعزيز نشاطاتها بجهود (فيردناند دي مديتشي) دوق توسكانه وذلك بالاستفادة من المطابع العربية التي أسسها ووضعها في خدمتها، والذي لم يُخْفِ هو نفسه الهدف من إنشائها إذ أنه أعلن بكل وضوح من أن تلك المطابع لم تنشأ إلا لمساعدة حركة التنصير[1]، مما يقدم دليلاً آخر على العلاقة القوية بين هذه الحركة والاستشراق، فبدأت أعمال المستشرقين مذ ذاك تطبع فيها بكميات كبيرة لتنشر بين المسلمين تحت ستار نشر تراثهم، والتي كان الكثير منها يحفل بالمغالطات والدس الخبيث وتَصَيُّدِ الهفوات والروايات الضعيفة وإبرازها جميعاً على أنها هي الحقيقة، كل ذلك لزعزعةِ عقيدةِ المسلمين وبالتالي اجتذابهم للمسيحية. وهكذا تواصلت الجهود في هذا الاتجاه وتضافرت على مر السنين حتى وصلت حركة الاستشراق إلى

---

(١) انظر شاخت وبوزورث: «تراث الإسلام»، ق١، ص٦١-٦٢، كذلك د.أحمد سمايلوفتش: المرجع السابق ص٧٧-٧٨.

ما هي عليه في وقتنا الحاضر.

ونحن لا ننكر أنه كان لحركة الاستشراق دورٌ كبير في نشر قسم لا يُستهانُ به من التراثِ الفكري الإسلامي والحفاظ عليه، ولكن ينبغي أن لا يغيب عن الذهن أن ذلك لم يكن هدف هذه الجهود، وإنما كانت تحصيل حاصل، أي نتيجة لم تَقْصدها تلك الحركةُ ولم تعملْ لها، وبناء على ذلك، فإننا نخلصُ إلى نتيجةٍ هامة، هي أنَّ هذه الحركة قد تأسست في أواخر العصور الوسطى لتحقيق أهداف صليبية، ثم وضعت نفسها في خدمة الاستعمار منذ أن أطلَّ عهده لنفس الغرض، فالتوافقُ في الأهداف بين الحركة الصليبية والاستعمار أوجد هذا التلاحمَ بين الطرف الثاني وحركة الاستشراق، وإذا كان قد ظهر بين المستشرقين مؤخراً مَن استهواهُ الفكر الإسلاميُّ حقاً فأقبلَ على دراسته مُنَزِّهاً نفسه عن كلِّ غرضٍ إلا خدمة العلم، فكان هؤلاء وهم قِلَّةٌ إذا ما قُورنوا بالفريقِ الآخر الذي يمثل الغالبية العظمى منصفين في حكمهم على هذا الفكر، ومع اعتزازنا بهم وتقديرنا لجهودهم، إلا أنَّ ذلك ينبغي أنْ لا يصرفنا عن الهدفِ الحقيقيِّ للفريق الآخر ولحركة الاستشراق بوجه عام، وبالتالي ينبغي أنْ يَتنبَّه المسلمون لخطر هذه الحركة وأن يحذروا من نشاطاتها وما تقدمه، إذ أنها تقدم السُّمَّ الزُّعافَ في الدسم.

* * *

وبعد، فإذا كان نشاط حركة التنصير قد فَترَ في بلاد المسلمين منذ أواسط القرن العشرين لأن هذه البلاد أخذت منذئذٍ تتحررُ من ربقة الاستعمار، إلا أنَّ نشاطها قد عاد في السنوات الأخيرة بقوةٍ كبيرة وحماس أشد، وأساليب جديدة إلى أقطار عديدة منها وبخاصة في إفريقيا الوسطى، وشرق آسيا محاولةً في ذلك الاستفادةَ من المجاعة التي خَيَّمتْ عليها نتيجةً

لسنواتِ القحط المتتالية التي مرت عليها أو لِمَا أصابها من بلاء الكوارث الطبيعية أو الحروب، ولعلَّ خيرَ دليل على ذلك هو ما أوردته جريدة القبس الكويتية في عددها رقم (٥٦٦٩) الصادر بتاريخ ٢٣/ ٢/ ١٩٨٨م وفق ما أعلنته منظمةُ الدعوة الإسلامية والذي ينبغي بدوره أنْ يُثيرَ حميةَ كُلِّ مسلمٍ لمواجهة هذا الخطر الداهم، فقد ذكرت تلك الصحيفة أنَّ منصراً بلجيكياً قد تبنى (٣٠٩٠٢) من أطفال المسلمين في الصومال، وأن نسبة عدد المسلمين في بلاد (ملاوي) الإفريقية قد انخفضت نتيجة لجهود حركة التنصير فيها من ٧٠٪ إلى أقل من ٣٠٪، وأن عدد المنصرين المتفرغين في إفريقيا وحدها بلغ ما يزيد عن المائة ألف منصر ويتعاون معهم حوالي ستة ملايين نسمة، وأن عدد المعاهد التعليمية التابعة للكنيسة فيها وصل إلى عشرين ألف معهد تقريباً، وأنَّ عددَ أبناء المسلمين الذين يشرف المُنَصِّرونَ على تعليمهم فيها خمسة ملايين طالب تقريباً، وأن عدد المدارس اللاهوتية لتخريج الرهبان المُنَصِّرين والقساوسة بلغ أكثر من خمسمائة مدرسة، وأن رياض الأطفال التي يديرها المنصرون في تلك القارة زاد عن الألفين، في حين أن المستشفيات التي أقامتها الإرساليات التنصيرية فيها أيضاً زادت عن الخمسمائة[١].

إنها إحصائيةٌ تُصيب المرءَ بالذُّهولِ والمرارة والأسى في نفس الوقت، والأدهى من ذلك، أن المنصرين الذين أسكرتهم نشوةُ ما حَقَّقُوه من نجاح لم يعودوا يَتحرَّجُون من نشر الإحصائيات الدالة على هذا النجاح، أو من الإفصاحِ عن أهدافهم والبوحِ بما تُكِنُّه صدورُهم للإسلامِ من حقدٍ وعداوة، إلى حد أنْ أصبح نداؤهم في إفريقيا كما تقول تلك الصحيفة هو: (اخلع

---

(١) انظر صحيفة القبس الكويتية، العدد ٥٦٦٩، الصادرة بتاريخ ٢٣/ ٢/ ١٩٨٨م.

عنك دِينَ الإسلام نخلع عنك الجوعَ والعطشَ والمرضَ والعُرْي)[1]، وليس ذلك فحسب، بل إنَّ حركة التنصير اعتماداً على ذلك النجاح حددت عام ٢٠٠٠م بأنه سيكون عامَ فخرٍ لإفريقيا دون بقية القارات إذ سيصبح أكثر سكانها من المسيحيين، ومما لا شك فيه، هو أن هنالك جهوداً مماثلة تبذل في قارة آسيا، فهل يتنبه المسلمون لما يُرادُ بهم؟

---

(١) انظر صحيفة القبس الكويتية: نفس العدد السابق.

ثبت المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- ابن جبير: (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني)، «رحلة ابن جبير»، المسماة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، دار صادر - دار بيروت، بيروت، ١٩٦٤م.

٣- بوعزيز: (د. يحيى)، «الموجز في تاريخ الجزائر»، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٥م.

٤- الترجمان: «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب»، مطبعة التمدن، القاهرة، ١٩٠٤م.

٥- الحجي: (د. عبدالرحمن علي)، «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة»، دار القلم، دمشق - بيروت، ١٩٧٦م.

٦- حموده: (د. علي محمد)، «تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي»، دار الكتاب العربي بمصر، ١٩٥٧م.

٧- الجنحاني: (د. الحبيب)، «من قضايا الفكر»، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٥م.

٨- جوليان: (شارل أندري)، «تاريخ إفريقيا الشمالية»، ترجمة محمد مزالي، والبشير سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، ج١: ١٩٦٩م، ج٢: ١٩٧٨م.

٩- سالم: (د. السيد عبدالعزيز)، «محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس»، كريديه إخوان، بيروت، ١٩٧٣م.

١٠- سمايلوفتش: (د. أحمد)، «فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر»، مطابع دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧٤م.

١١- شاتليه: (أ. لُ A.Le Chateler)، «الغارة على العالم الإسلامي» (La Conquete du Monde Mosulman)، تلخيص وترجمة محب الدين الخطيب، ومساعد اليافي، نشر قُصَيّ محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية - ومكتبتها، القاهرة، ١٣٨٥هـ. وقد سبق نشره في جريدة المؤيد سنة ١٣٣٠هـ، وفي صحيفة الفتح سنة ١٣٤٩-١٣٥٠هـ.

١٢- شاخت: (جوزيف، وسي. بوزورث)، «تراث الإسلام»، ترجمة د. حسين مؤنس وإحسان العمد، مراجعة د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨م.

١٣- الطالبي: (د. محمد)، «الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين»، بحث مستخرج من حوليات الجامعة التونسية، عدد سنة ١٩٧٥م.

١٤- الطهطاوي: (محمد عزت إسماعيل)، «التبشير والاستشراق - أحقاد وحملات على النبي ﷺ وبلاد الإسلام»، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٧٧م.

١٥- (د. سعيد عبدالفتاح)، أ- «أوروبا العصور الوسطى»، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٧٥م. ب- «الحركة الصليبية - صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى»، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧١م. جـ- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى»، دار النهضة

العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٢م.

١٦- العبادي: (د.أحمد مختار)، «في التاريخ العباسي والأندلسي»، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، بدون سنة نشر.

١٧- عنان: (محمد عبدالله)، «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين»، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٨- مارينو: (د.مارتينو مورينو)، «المسلمون في صقلية»، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت، ١٩٦٨م.

١٩- المقري: (شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني)، «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب»، تحقيق د.إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م.

٢٠- مؤنس: (د.حسين)، «الجغرافية والجغرافيون في الأندلس - الشريف الإدريسي قمة علم الجغرافية عند المسلمين»، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد ٩-١٠، مدريد.

٢١- نوار: (د.عبدالعزيز سليمان)، «الشعوب الإسلامية»، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٣م.

٢٢- يوسف: (د.جوزيف نسيم)، «العدوان الصليبي على بلاد الشام - هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة»، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.

٢٣- القبس: صحيفة القبس الكويتية، الكويت، عدد ٥٦٦٩، ١٩٥٨م.

24- Brunschvig, R.: Le Barbarie orientals sous Les Hafsides des origines a la fin du XV Siecle. Paris, 1940-1947.

25- Baunard, Mgn.: Le Candinal Lavigcrie, Paris, 1896.

26- Berque, L.: Le Maghreb Entre Deox Guerres, Paris, 1962.

27- Brunschvig, R.: Le Barbarie orientals sous Les Hafsides des origines a la fin du XV siecle. Paris, 1940-1947.

28- Chovin, G.: A Pera Sur les relations de la France avee le Maroc des origines a la fin de Mayan Age. Hesperies, Tom XLiv, 1957.

29- Clissoide, S.: The Barbary Slaves. London, 1977.

30- Daniel, E.R.: The Franeiscan Consecpt of Missions in the High Middle Ages. London,

31- Daniel. Norman: The Arabs and Mediaval Europe. London, 1975.

32- Daufoureq, ch.E.: L'Espagne Catalance et La Magrib aux XIII et XIV siecles. Paris, 1966.

33- Garreau, Albert: Saint Louis et San royame. Paris, 1949.

34- Grousset, R.: Histoire des Croisades du royame France d' Jerusalem. Paris, 1936.

35- Hillgarth, J.N.: Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France. Oxfored, 1971.

36- Nangis, Guillaume de: Vita Sancti Ludvici Regis Francia Ed. Hist. de Er., XX, PP.312-465.

37- O' Conell, D.: La Propose de saint Louis, Presente Par David O' Conell, et Prefaces Par Jacques Le Goff. Paris, 1974.

38- Settoon, K.M.: A History of the Crusades. London, 1969-1974.

39- Tisserant, E.& Wiet, G.: Une Lettre de l' Almohda Mortada au Pope Innocent IV. Hesperies, Tom VI, 1926.

40- Peuples D' outre - Mer et Civilisation occidentale, semaines. Sociales de France. Paris, 1948.

الفهرس